الأدب في العصر الجاهلي

يُعد الأدب في العصر الجاهلي - وبخاصة الشعر - ديوان العرب ، وصورة مشرقة حية لهذه الفترة إذ يعتبر سجلا أمينا لكل مظاهر الحياة بكل صورها ، وتاريخياً دقيقاً لأحداث هذا المجتمع وتطوره ، وذلك من خلال أسلوب أدبي ولغة أدبية جذابة شائقة مؤثرة ممتعة .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الأدب الجاهلي مثّل الحياة الجاهلية بكل ألوانها - السياسية والاجتماعية والعقلية ، تمثيلا صادقاً ، في صورة ناطقة بأحاسيس ومشاعر الأدباء والشعراء .

مميزات الأدب الجاهلي:-

بالرجوع إلى الأدب الجاهلي والنظر فيه من ناحية الشكل والمضمون ، هما ركنا الأدب وأهم خصائصه - يمكن أن نحصر مميزاته فيما يلي :

١ المفروض أن الشعر هو الفن الأدبي الأول الذي سيطر على هذه الحياة البدوية ما دام الشعر لغة الطفولة الإنسانية ، وأسبق الفنون الأدبية إلى الوجود .

٢. تمتاز العاطفة في الأدب الجاهلي بالصدق ، وذلك لما امتاز به الجاهليون من الحرية والاعتزاز بالنفس ، فلم يكن هناك ما يدعوا إلى النفاق والمداراة ، وقد كان منهم من هجا الملوك والرؤساء وعرض نفسه للهرب أو الهلاك بسبب صراحته وصدق شعوره كطرفه والمتلمس ، وان لم نصل العاطفة إلى ما نطلق عليه الآن " سمو العاطفة " والنزعة الإنسانية العامة، ولعل ذلك نابع من تأثر الأدب في تلك الفترة بالحياة المادية .

٣.ومن ناحية الفكر فإننا نلحظ أنها ثمرة تجارب شتى ، وأفكار متناثرة تمثل الذكاء وحدة الذهن . ولا تمثل النظرة الشاملة أو المنطقة المسلسل المستقيم ، وذلك راجع إلى انعدام الحياة العقلية الراقية ، فكان الأدب الجاهلي يقوم على الشعور على هذه التجارب العادية والضروريات الطارئة .

٤.أما الخيال ، فهو الخيال البياني أو التفسيري القائم على الاستعارة والتشبيه والمجاز وما إليها وهذا النوع طبعي ما دام الأديب يتخذ عناصر هذا الخيال من البادية ، فالرجل العظيم فحل ، أو قرم أو جبل . والناقة في سرعتها كالحمار الوحشي ، والرجل السريع كالظليم أو الحصان ، والكريم كالبحر ، والشجاع كالأسد ، والمرأة كالغزال والبقرة الوحشية ، وهكذا يتخذ موضوعاته الوصفية وعناصره الخيالية من الصحراء والسماء والكواكب والحيوان ، فهو أدب حقيقي قلما تجد فيه مبالغة تخالف ظروف العصر وأحواله

٥.أما من ناحية الأسلوب ، فهو الأسلوب الطبيعي العربي الخالص القائم على قلة الترادف والتكرار ، وعدم التزيد ، وعدم الاهتمام بالفنون البديعية ، ودلك لقرب اللغة من عهدها الطبيعي اليسير ، وكذلك الميل إلى الإيجاز ولاسيما في النثر ، كما كان الأسلوب خاليا من اللحن .

ولسنا ممن يقول بعراية اللغة الجاهلية أو صعوبة عبارتها . فذلك يجب أن يقاس بمستوى ومعارف الجاهليين أنفسهم ، وما دام هذا الأدب مفهوما لديهم يتلقونه ويعارضونه ويتأثرون به ، فهو أدبهم السهل الطبيعي المعروف

والأدب الجاهلي بهذه الصورة سيظل معيناً لا ينضب للأدباء والدارسين على مر العصور واختلاف الأماكن .

تونية المثقب العبدي

هذه القصيدة من بحر " الوافر "

نص القصيدة :-

١. أفـاطم قَبْـلَ بينـك متعينـي
ومنعك مـا سـألت كـأن تبينـى

٢. ولا تعـدى مواعـد كاذبـات
تمر بهـا ريـاح الصـيف دونـي

٣. فـإني لـو تخـالفني شـمالي
خلافك مـا وصـلت بهـا يمينـي

٤. إذا لقطعتهـا ولقلـت بينـي
كـذلك أجتـوى مـن يجتـويني

٥. لمن ظعن تطالع مـن ضـبيب
فما خرجت من الـوادي لحـين ؟

٦. تبصر هل ترى ظعناً عجـالاً
بجنب الصحصحان إلى الـوجين ؟

٧. مررن على شراف فذات رَجْلٍ
ونكـبن الـذرانح بـاليمين

٨. وهن كذاك حين قطعن فلجـا
كـأن حـدوجهن علـى سـفين

٩. يشبهن السـفين وهـن بخـت
عراضـات الأبـاهر والشـؤون

١٠. وهن على الرجائز واكنـات

قوائـل كـل أشـجع مسـتكين

١١. كغزلان خذلن بـذات ضـال

تنوش الـدانيات مـن الغصـون

١٢. ظبرن بكلة وسـدلن رقمـا

وتقـبن الوصـاوص للعيـون

١٣. أرين محاسناً وكـنن أخـرى

مـن الـديباج والبشـر المصـون

١٤. ومن ذهب يلوح على ترئـب

كلون العاج ليس بـذى غضـون

١٥. وهن على الظـلام مطلبـات

طـويلات الـذوائب والقـرون

١٦. بتلهية أريـش بهـا سـهامي

تبـذ المرشـقات مـن القطـين

١٧. علون رباوة ، وهبطن غيـلاً

فلـم يـرجعن قائلـة لحـين

١٨. فقلت لبعضهن وشد رحلـي

لهـاجرة نصـبت لهـا جبينـي

١٩. لعلك إن صرمت الحبل مني

كذاك اكـون مصـحبتي قرونـي

٢٠. فسل الهم هنك بـذات لـوث

عـــذافرة كمطرقـ التيـــون

٢١. بصادقة الوجيف كـأن هـراً

يباريهـــا ويأخـــذ بالوضـــين

٢٢. كساها تامكـا قـرداً عليهـا

ســوداى الرضـيخ مـع اللجـين

٢٣. إذا قلقت شددت لهـا سـنافا

أمام الزور مـن قلـق الوضـين

٢٤. كأن مواقـع الثفنـات منهـا

معـرس بـاكرات الـورد جـون

٢٥. يجذ تنفس الصـعداء منهـا

قوى النسع المحـرم ذي المتـون

٢٦. تصـك الجـانبين بمشـفتر

لـه صـوت أبـح مـن الـرنين

٢٧. كأن نفى مـا تنفـى يـداها

قـذاف غريبـة بيـدي معـين

٢٨. تسد بـدائم الخطـران جثـل

خوايـة فـرج مقـلات دهـين

٢٩. وتسـمع للـذباب إذا تغنـى

كتغريـد الحمـام علـى الوكـون

٣٠. وألقيت الزمام لها فنامت

لعادتها من السدف المبين

٣١. كأن مناحها ملتى بجام

على معزائها وعلى الوحين

٣٢. كأن الكور و ذساع منها

على قرواء ماهرة دهين

٣٣. يشق الماء جؤجؤها وتعلو

غوارب كل ذي حدب بطين

٣٤. غدت قوداء منشقا نساها

تجاسر بالنخاع وبالوتين

٣٥. إذا ما قمت أرحلها بليل

تأوه آهة الرجل الحزين

٣٦. تقول إذا درأت لها وضيني

أهذا ديبه أبداً ودينى ؟

٣٧. أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقي على وما يقيني ؟

٣٨. فأبقى باطلي والجد منها

كدكان الداربنة المطين

٣٩. ثنيت زمامها ووضعت رحلي

ونمرقة رفدت بها يميني

٤٠. فرحت بها تعارض مسبطرا

على صحصاحة وعلى الستون

٤١. إلى عمرو ومن عمرو انتمي

أخي النجدات والحلم الرصين

٤٢. فإما أن تكون أخي بحق

فاعرف منك غثي من سميني

٤٣. وإلا فاطرحني واتخذني

عدواً أتقيك وتتقيني

٤٤. وما أدري إذا يممت وجها

أريد الخير أيهما يليني

٤٥. أألخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني ؟

التعريف بالشاعر [1]

كه هو عائذ بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن نكرة بن عبد القيس بن أسد بن ربيعة . ولقب بالمنقب لست قاله هو

ظهر بكلة وسدل رقما ونقب الوصاوص للعيون

كه لم تجد المصادر الأدبية بشيء يكشف النقاب عن حياة المنقب الأسرية . وكل ما لدنيا أن أباه - محصن بن ثعلبة - كان رحلاً مرموقاً في قبيلته . لقب بالمصلح لأنه قام بالمصلح بين قبيلتي بكر وتغلب ، وكذا قبيلتي عوف وعامر . وفي هذا يقول المنقب :

١- انظر ترجمته في شرح المفضليات للتبريزي ٢ / ٥٥٥ ، طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١ / ٢٧١ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٣٦٥

أبي أصلح الحيين بكراً وتغلباً

وقد أرعثت بكر وخف حلومها

وقام يصلح بين عوف وعامر

وخطة فصل ما يعاب زعيمها

ومما لدينا أيضاً أن أحته هي ام شاس بن نهار العبدي الشاعر المعروف باسم المرقش . أما تاريخ مولده فمجهول وتوفي سنة (٥٨٨ م) .

والمتقب العبدي من شعراء عبد القيس ، وهي إحدى قبائل البحرين التي دانت بالنصرانية في الجاهلية ، ولذا عده الأب لويس شيخو ضمن الشعراء النصرانيين في كتابة الشعراء النصرانية في الجاهلية ، ومما يشير إلى نصرانيته ذكره للفظ الجلالة مرجناً إليه الثواب والجزاء في قوله .

فجزاه الله من ذي نعمة

وجزاه الله إن عبد كفر

كما جاء مقرناً بمشيئة الله بعد تيقنه . في قوله

وأيقنت إن شاء الإله بأنه

سيبلغني أجلاها وقصيدتها

ومن أقواله التي نستشف منها لوناً من ديانته ، والتي تومي إلى وجود إله مدبر ، فتعكس لوناً من نصرانيته .

وما أدري إذا يممت وجها

اريد الخير أيهما يليني

أألخير الذي أنا ابتغيه

أم الشر هو يبتليني؟

- وقد تعددت ألوان الثقافات في شعر المثقب العبدي ، وإن في معظمها مستمدة من البيئة المحيطة به ، والأفكار السائدة فيها

ومن أهم مظاهرها تلك الثقافة اللغوية التي تجلت في اتساع لغته الشعرية وتعدد مرادفاتها بصورة بينه تمكنه من اختيار اللفظ المناسب للمعنى المراد ، فجاءت ألفاظه دقيقة في مدلولاتها .

- كما اتسمت ثقافة المثقب ببعض السمات الحضرية ، ولعله اكتسبها من بيئته - البحرين لوقعها في كنف مملكة الحيرة ، والاحتكاك بها . هذا بالإضافة إلى ما للبحرين من سمات حضرية نتيجة لوقوعها على شاطئ الخليج العربي ، مما سهل لها حياة الاستقرار ، وفتح أمامها أبواب الرزق كالزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والصيد ، فبدا طبيعياً أن تتسم الحياة في البحرين بالسمة الحضري ، والتي أثرت بدورها في ثقافة المثقب .
- وكما تأثرت ثقافة المثقب العبدي بالبيئة المحيطة به بدت كذلك متأثرة بالمعتقدات السائدة فيها آنذاك ، فبدا أثرها واضحا جليا في شعره.
- هذا وقد جاءت أشعار المثقب خير شاهد على طيب عنصره وسمو خلقه، ومن أشعاره التي تؤكد ذلك قوله

أجعل المال لعرضي جنة

إن خير المال ما أدى الذمم

ومن أشعاره التي تشير إلى عزة نفسه وأنفته ، قوله

أنا بيتي من معد في الذرى

ولي الهامة والفرع الشمم

وكذلك يتعفف عن الغيبة والفحش ، إذ يقول :

لا تراني راتعا في محلس

في لحوم الناس كالسبع الضرم

وكلام سيء قد وقرت

عنه أذناى وما بي من صمم

ومن أقواله التي تدل على تسامحه وصفحه عند الإساءة إليه :

ولبعض اصفح والإغراض عن

ذي الخنا أبقى وإن كان ظلم

وقد تأثر بشعر المثقب عديد من الشعراء المعاصرين له واللاحقين به ومن هؤلاء : الطرماح ، والشماخ بن ضرار ، والنابغة الذبياني .

اللغة والمعاني :

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنعك ما سألت كأن تبيني

ولا تعدي مواعد كاذبات

تمر بها رياح الصيف دوني

فإني لو تخالفني شمالي

خلافك ما وصلت بها يميني

إذا لقطعتها ولقلت بيني

كذلك أجتوى من يجتويني

اللغة :

أفاطم : أراد أفاطمة ، فقطع آخر الاسم وهو الترخيم .

البين : البعد والفراق. **متعيني :** يريد متعيني وصلك .

ومنعك ما سألت : أي منعك لوصلي . **كأن تبيني :** أي كمفارقتك عندي .

تمر بها : تذهب بها وتفرقها في كل وجه . وخص رياح الصيف دون سائر الأزمنة ، لأن الخير يقل فيها ويكثر غبارها ولا يحلب مطرا .

وقال الأستاذ " محمود شاكر " إنما عنى برياح الصيف مما يثور بينه وبينها من الخلاف والعناد واليأس ، وكل ما يذهب بالمودة ويعصف بالمواعيد .

بيني : ابتعدي . **الأهواء :** الكراهة والاستثقال .

المعنى :

افتتح الشاعر قصيدته بخطاب مباشر إلى صاحبته - فاطمة - يستنكر فيه عزمها على الفرقة والارتحال ، ويأمرها بأن تتمهل في فراقها حتى تصله كسابق عهدها ، وأن تلتزم في وعودها دون خداع أو مواربة ، وإلا فلن يشفع لخداعها مكانها في قلبه مهما تعاظم قدرة ، فلو أبي عزيز ، تابى عليه نفسه أن يرتضي الخنوع والاستسلام لنداء قلبه ، فلو قدر لشماله أن تخالف يمينه على شاكلة صاحبته لقطعها دون تردد أو تريث ملوحا بها بعيداً عنه ، فلا حاجة به لمن رغب عنه وأحب مفارقته .

لمن ظعن تطالع من ضبيب

فما خرجت من الوادي لحين

مررن على شراف فذات رجل

ونكبن الذرانح باليمين

وهن كذاك حين قطعن فلجا

كأن حدوجهن على سفين

يشبهن السفين وهن بخت

عراضات الأباهر والشؤون

اللغة :

ضبيب : أسم مكان . **لحين :** أي بعد إبطاء ومضي وقت.

ذات رجل : موضع .

الذرانح : جمع ذرنحة . وهي الأكمة دون الهضبة ، وهو هنا موضع معروف بين كاظمة والبحرين .

نكبن : عدلن عنه .

ومعنى كذاك : أي حالتها الأولى يوم قطعن فلجا ، وكأن حمولهن على سفين .

السفين : جمع سفينة . **العراض :** العريض المفرط .

الاباهر : الظهور ، وأصل الأبهر عرق في الظهر .

الشؤون : جمع شأن ، وهي شعب قنائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين

المعنى :

ويحاول الشاعر أن يضفي صبغة واقعية على تجربته بتحديده للأماكن التي مر بها موكب صاحبته عند الارتحال ، من ضبيب ، والصحصان ، والوجين ، وشراف ، وذات رجل ، والذرانح ، وقد عمد الشاعر إلى ذكر هذه الأماكن لتجري

الدقة في وصفه للطريق . كما أنها تحقق له المتعة واللذة بذكرها وتساعده على استحضار عناصر تجربته في جميع صورها . هذا بالإضافة إلى كونها علامات على الطريق ترشد من ضل طريقة في البيداء.

ثم انتقل بعد ذلك إلى لقطة أخرى يشبه فيها إبل الموكب في ضخامتها وسرعة سيرها بانسياب السفن في الماء . فهي طويلة . عريضة الظهر . تتمايل في سيرها كتمايل السفن في الماء .

وهن على الرجائز ولكنات
قوائل كل أشجع مستكين
كغزلان خذلن بذات ضال
تنوش الدانيات من الغصون
ظهرن بكلة وسدلن رقما
وتقبن الوصاوص للعيون
أرين محاسناً وكنن أخرى
من البياج والبشر المصون
ومن ذهب يلوح على تريب
كلون العاج ليس بذي غضون
وهن على الظلام مطلبات
طويلات الذوائب والقرون
بتلهية أريش بها سهامي
تبذ المرشقات من القطين

اللغـــة :

الرجائز : مراكب النساء . جمع رحـازة . وهـي أصـغر مـن الهـوادج . واكنـات جلسات مطمئنات

وقوله " قواتل كل أشحع . أي كل رحل أشجع في نفسه مستكين لهن .

والاستكانة : الخضوع . **خذلن :** جنحن .

ذات غـال : أسم موضع . **تنوش :** تقطف .

الكلة : غطاء يفرش على الهودج .

الرقم : البرود ، أو ضرب مخطط من الوشي .

الوصاوص : البراقع .

البشر المصون : بعـض بشرتها كاليـد وبعـض الوجـه، ومـا لا ريبـة في إظهـاره، وسترن ما عدا ذلك .

التريب : جمع تريبة، وتجمع على ترائب ، وهي عظام الصدر موضع القلادة .

الفضون : تثنى الجلد .

على الظلام : أي على ظلمهن . **مطلبات :** مطلوبات لفرط حملهن .

الدوائـب : ضفائر الشعر المسترسلة على الظهر .

القـرون : خصلة من الشعر بحوار الأذن .

تلحيـة : تفعلـة مـن اللـبو ، أي تنصـب الحبالـة لهـن ، وتعـد سـهام اللـهو فترصـد لصيدهن . **قيد :** تسبق .

المرشقات : الحديدات النظر، وقيل لا يكون الارشاق إلا مد العنق .

القطيـن : الخدم ، والجيران ، والتباع

المعنى :

ثم انتقل شاعرنا إلى وصف جمال محبوبته ، وهي في معية صويحباتها - حتى لا يظهر صورتها كاملة أمام السامعين ، متبعاً في ذلك تقاليد البادية العربية في ضرورة الحفاظ على المرأة وصونها فأشاد بفرط جمالهن حتى استطعن أن يقتلن بسهام نظراتهن كل شجاع في استكانة ويسر، حتى لا يملك من أمر نفسه إلى أن يستكين ويخضع لسلطان جمالهن ، والذي رحن يكشفن عن بعضه من البشرة الملتفة في أبهى ثياب من الديباج والحرير، والصدور البيضاء التي تشبه العاج في بياضه وإشراقه، مما مكنهن من استلاب قلوب الرجال في خفة ورشاقة كغزلان تتهاوى في رياض يانعة يقطفن من ثمار غصونها الدانية، وهن على ظلمهن للرجال مطلوبات لفرط جمالهن ، فهن طويلات الذوائب والقرون ، ولذلك يحتال لهن الرجال ويعدون لهن سهام الصيد ليفوزوا بودهن ويلهوا بوصلهن .

علون رباوة ، وهبطن غيبا

فلم يرجعن قائلة لحين

فقلت لبعضهن وشد رحلي

لهاجرة نصبت لها جبيني

لعلك إن صرمت الحبل مني

كذاك أكون مصحبتي قروني

اللغة :

الرباوة : ما ارتفع من الأرض .

الغيب : ما أطمأن من الأرض . فغاب عنك ما فيه. فلم يرجعن قائلة .

لحين : أي مستمرات في السير ، ولم يملن إلى قيلولة .

الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الشمس ، وقوله لهاجرة أي من أجلها، وسميت هاجرة لأن السير يهجر فيها .

نصبت لها جبيني : أي وطنت نفسي على ركوبها.

وقوله صرمت الحبل مني : نكي به عن هجرها له وقطعها لوصله

مصحبتي : تابعتي : يقال : ضربت البعير حتى أصحب أي تبع وانقاد .

قرونه : نفسه وموضع ، مصحتي مبتدأ وقوريني خبرة ، والجملة تفسير لقوله.

كذلك : وكذلك حير أكون ، والجملة تترجم عن جواب الشرط .

المعنى :

ويعاود الشاعر تتبعه لموكب صاحبته في عزيمة وإصرار يتزود من حميتهما ما يمكنه من تحمل ويلات الطريق ووعثائه ، وحرارة الهاجرة ولهيبها ، فيعقبه عن حرص وكثب في صعود وهبوطه ، ثم يقدم - هذه المرة - في جرأة على مخاطبة صاحبته مباشرة محذراً لها ألا تتصرف عنه في وصلها ودها ، وإلا نالت منه مثيل فعلتها فينصرف إلى نفسه ويصحبها بدلاً منها

وهذا النهج وإن كان في ظاهرة يبدو مخالفاً لما يجب أن يكون عليه المحب مع محبوبته من التهالك والصيانة إلا أنه يتواءم مع حمية الجاهلي وصولته واعتزازه بنفسه عند احتكاكه بما يؤلمه ويثير صولته وبخاصة إذا كان في مقام الفخر كشأن شاعرنا ، وإلى هذا المعنى أشار الدكتور / محمد أبو موسى في قوله " وهذا الضرب من الغزل الذي ترى حوله أنغام الاعتزاز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس الممتازة هو الشبه بالشخصية العربية، والإنسان العربي في هذه

الحقبة من تاريخه وأن الصبوة وإنما تثير عند هذا العربي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والشباب " [1]

ولعل الشاعر يرمز بصعود الموكب وارتحاله إلى مواقع تجربته مع صاحبته وما يتخللها من شبوب في العاطفة وهدوء بعقبه .

فسل الهم عنك بذات لوث

عذافرة كمطرقة القيون

بصادقة الوجيف كأن هرا

يباريها ويأخذ بالوضين

كساها تامكا قردا عليها

سوادى الرضيخ مع الوجين

إذا قلقت شددت لها سنافا

أما م الزور من قلق الوضين

كأن مواقع الثفنات منها

معرس باكرات الورد حون

اللغة :

الهم : الحزن ، وهو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل.

ناقة ذات لوث : أي ذات قوة ، وقيل كثيرة اللحم ، واللوث من الأضداد بمعنى القوة والضعف .

العذافرة : الشديدة القوية . **القيون** : جمع قين وهو الحداد

الوجيف : السير السرى .

١- قراءة في الأدب القديم د. محمد ابو موسى ص ٧٣ الطبعة الأولى دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٧٨م

وقوله : مصادقة الوجيف بدل من قوله بدات لوث .

يباريها : يريد به ينافسها ويحدثها . **الوضين** : حزام الرحل .

التامك : السنام المشرف **القرد** : المجتمع الصلب .

السوادي : يريد علف السواد وهو القت والنوي ، ونسبة إلى السواد لأنه علف الأمصار لا البدو

الرضيخ : المدقوق من النوى

اللجين : ما تلحن ولزق بعضه ببعض ، يريد أنها علفت حتى سمنت ، وركبها سنام مشرف .

السناف : خيط أو حبل رقيق يشد من اللبب إلى الوضين لضمر البعير.

الصدر : الصدر ، أو العظم الذي في وسط الصدر .

الفضنات : ما مس الأرض من يديها ورجليها ومقدمة صدرها عند البروك ، وهن خمس .

المعرس : موضع التعريس ، والتعريس هو النزول آخر الليل . أو أوله.

باكرات الورد : أي منكرات إلى الماء ، ويعني هنا القطا ، وهي طائر في حجم الحمام.

جون : سود ، وخص القطا الجوني للطافته .

المعنى :

ثم يتخلص الشاعر من حديثه عن صاحبته إلى وصف ناقته التي امتطاها صحراته - حتى ينفس عما احتشد في صدره من لهيب الوجد والصبابة - فراح يمعن في وصف شدتها وقوتها، فهي ناقة قوية شديدة تشبه في صلابتها مطرقة الحدادين ، كما أنها تسرع في عدوها وكأن هزا يحاذيها بنبتتها بأنابه وبحاله .

متحد في عدرها وانطلاقها حتى تتقى مخالبه وأنيابه، ولم لا وهي ناقة قوية البنيان علفت حتى سمنت واعتلاها سنام مشرف، قد يسبب قلقا لاستواء الرحل على ظهرها فيشد له حبل لتثبيته، وقد بلغت من قوتها وضخامتها أنها تترك أثراً لبروكها على الأرض تشبه اثار أفراخ القطا عند هبوطها عند موردها بكورا.

يجذ تنفس الصعداء منها
قوى النسع المحرم ذي المتون
تصك الجانبين بمشفر
له صوت ابح من الرنين
كأن نفسي ما تنفي يداها
قذاف غريبة بيدي معين
تسد بدائم الخطران جثل
خوايه فرج مقلات دهين
وتسمع للذباب إذا تغنى
كتغريد الحمام على الوكور

اللغة :

يجذ : يقطع. **تنفس الصعداء** : يعني به هواء زفيرها عند التعب

النسع : حبل يشد به الرحل يمتد على وسط الناقة.

المحرم : الذي لم يدبغ ولم يلين. **القوى** : الطاقات.

ذو المتون : ذو القوى، والمعنى أنها إذا زفرت قطعت النسع بتنفسها لأنها شديدة عظيمة الوسط.

تصك : تزح أو ترمي .

المنسمر : المنفرق ، ويعني به هنا المنفرق من الحصى .

البحة : صوت فيه علة .

المعين : الأجير .

الغريبة : الرحى .

ونضحها : ما تعلحنه وتقذف به .

دائم الخطران : ذنبها .

خطراته : حركته .

الخوابة : الفرحة .

الجثل : الكثير الشعر

المقلات : التي لا يبقى لها ولد .

الدهين : القليلة اللبن

الذباب : أراد به هنا حد نابها إذا صرفت بأنيابها .

التغريد : التطريب .

الكون : جمع وكن. وهو عش الطائر.

المعنى :

ويستمر الشاعر في وصف قوة ناقته وضخامتها ، فهي ناقة قوية تقطع سير الرجل المتين إذا ما تنفست حتى أنها لترمي بالحصى - من فرط سرعتها - في سيرها فتقذف به جانبيها بشدة ، فتسمع له صوتاً أشد من الرنين يشبه صوت النوى المقذوف من بين شقي رحى سريعة الدوران ، كما أنها تمتلك ذنباً سميكاً دائم الخطران تسد به ما بين قوائمها ، وتسمع لأنيابها إذا ما صرفت بها صوتا ينبه بعريد الحمام على الكور

فألقيت الزمام لها فنامت

لعادتها من السدف المبين

كأن مناخها ملقى لجام

على معزائها وعلى الوجين

كـــأن الكـــور والأنســـاع منهـــا

علـــى قـــرواء مـــاهرة دهـــين

يشـــق المـــاء جؤجؤهـــا وتعلـــو

غوارب كـــل ذي حـــدب بطـــين

غـــدت قـــوداء منشـــقاً نســـاها

تجاســـر بالنخـــاع وبـــالوتين

اللغـــة :

السدف : الليل ، والسدف النهار ، ويريد به هنا الضوء.

المبين : البين **العادة :** النزول من وقت السحر في مثل ذلك الوقت

المعزاء : الموضع الكثير الحصى .

الوجين : مـا غـظ مـن الأرض وارتفـع، فشـبه مواقـع ثفناتهـا مواقـع أشـلاء اللجام إذا ألقي **الكور :** الرحل .

النساع : جمع نسع ، وهو سير تشد به الرحال .

قـرواء : سفينة طويلة . **ماهرة :** سابحة .

دهيـن : مدهونة . **الجؤجؤ:** الصدر .

الغوارب : الأمواج . **الحدب :** الموج المرتفع

البطيـن : الواسع البعيد **القوداء :** الطويلة العنق .

واراد بالنسا : موضـع النسـا، وإذا سنـدت الناقـة انشـقت اللحمتـا ـ في الفخذين فحرى النسا بينهما واستبان .

النخـاع : خيط ممتد أبيض في الصلب .

المعنى :

ويواصل الشاعر وصف ناقته وضخامة بنيانها . فهي ناقة صلبة شديدة المراس يواصل ترحاله عليها ليل نهار . حتى أنها لا تهجع لنومها إلا في نهاية الليل بعد طول عناء ومشقة . فتترك أثرا لمواقع بروكها يشبه مواقع أشلاء لجام ألقي على الأرض ، وهي في ضخامتها وعنفوانها تشبه سفينة تتهادى فوق المياه بعد أن تشق بصدرها الأمواج المتلاطمة ، ولا غرو في هذا فهي ناقة قوية علفت حتى اكتملت لها روافد القوة والنشاط من السمنة وسرعة العدو .

إذا مـا قمـت أرحلهـا بليـل
تـأوه آهـة الرجـل الحـزين
تقـول إذا درأت لهـا وضـيني
أهـذا دينـه ودينـي
أكـل الـدهر حـل وارتحـال
أما يبقـى علـى ومـا يقينـي ؟!

اللغة :

ارحله : أجعل عليه الرحل واشد عليه أداته .

التأوه : الوجع . **دراته** : مددته وشددت به رحلها .

الوضين : حزام الرحل . **دينه** : عادته ودأبه .

يقيني : يحفظني ويصونني

المعنى :

ويتمادى المثقب في وصف ناقته حتى يتغلغل إلى أعماقها ، فيترحم لنا عما يحول بخاطرها - إن قدر لها أن تتكلم - فهي تتأوه منه حزنا عندما يعدها للرحيل ليلاً ، تفضي عما في قلبها من شكوى قائلة : إلى متى يستمر في حلة وترحاله ، أما يحرص على ويقيني من هذا الهلاك ؟!

ولعل المثقب هنا أراد التنفيس عما احتدم في صدره من مشاعر الضيق والملل ، فعبر عنها بلغة شعرية وأعارها لسان ناقته ، فجاءت مصدوغة بصبغة النفسية .

فأبقى باطلي والجد منها
كدكان الداربنة المطين
ثنيت زمامها ووضعت رحلي
ونمرقه رفدت بها يميني
فرحت بها تعارض مسبطراً
على صحصاحة وعلى المتون

اللغة :

باطلي : أي ركوبي لها في طلب اللهو والغزل .

الجد : انكماشها في السير . ودكان الدرابنة دكان الدرابين . الواحد دربان . وهو فارسي معرب .

المطين : من طينته أطينه وموضع الكاف من قوله كدكان مفعول به اي مثل دكان .

نمرقة : وسادة اعتمدت عليها .

تعرض : تباري وتحاكي

مسبطرا : أي طريقا ممتداً . **الصحصاح :** المستوى من الأرض

المتون : جمع متن ، وهو الصلب من الأرض .

المعنى :

ويوصل شاعرنا وصفة لقوة ناقته - من زاوية حديدة - فيصرح بصلابة ناقته وشدتها بعد مرورها بكل هذا المصاعب والمهالك التي لم تستطيع النيل من قدرتها بل بقيت على قوتها وصخامتها كأنها بناء صخم مطين يشده مقعد البوابين، ولفرط قوتها ونشاطها راح يستأنف عليها ترحالة يعارض بها أعتى السل وأصعبها في مختلف ألوانها .

إلى عمرو ومن عمرو أنتني
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني
عدوا أتقيك وتتقيني

اللغة :

عمرو : هو عمرو بن هند ، وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي . وأبوه المنذر بن امرئ القيس اللخمي .

ومعناه : قصدت بناقتي عمرا ومن عنده أنتني النجدات

فاعرف منك غثي من سميني : أي فاعرف نصحك من غشك .

اطرحني : اتركني .

المعنى :

وبعد أن انتهى الشاعر من نسيبه بمحبوبته ، ووصفه لناقته ورحلته عليها ، مطهراً لصاحبته - فاطمة - قوة مراسه ، ونيل حصاله ، وسمومكانته . التفت - بعد اربعين بيتاً - مادحاً لعمرو بن هند من قبيل الفخر بصلته به ، باعتباره ركن تكتمل به عناصر فحولته وعزته ووافد إبائه وشممه . حتى يكشف لصاحبته أنه يتمتع بمكانة تجعله خليقاً بحبها فتعاوده بوصلها من جديد ، فها هو ذا يقول مخاطباً عمرو بن هند : إن لم تكن الأخوة بيننا على ما بينته وحددته ، فانقض يدك مما بيني وبينك ، واتخذني عدوا لك احترز منك وتحترز أنت مني ، وينطوي كل منا على ضغن صاحبه والحذر من شره .

وما أدري إذا يممت وجهها
أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذين أنا أبتغيه
أم الشر الذي هو يبتغيني

اللغة :

اكتفى الشاعر بذكر أحد الأمرين - في البيت الأول - وهو الخير ، اعتماداً على ما يحن بعده - في البيت الثاني - من التصريح بالأمر الثاني وهو الشر

المعنى :

ويختتم الشاعر قصيدته بحكمة أبدية راسخة يكشف فيها عن جهل الإنسان ما تضمره له الأقدار، فعلى المرء أن يسعى لبغيته دون اكتراث بنتائج سعيه ، فهي متروكة لما قدر له .

التحليل والتعليق :

تعد نونية المنقب من أشهر قصائده الشعرية ، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً، تجلت فيها موهبة المنقب العنبة ، وعدد فيها من موضوعاته الشعرية كالسبب ، والوصف ، والفخر ، والحكمة ، في تجاور محكم ، وبناء متكامل. فجاءت قصيدته متلاحمة متماسكة ، تمثل قيما فنية أصيلة ، ولذا حظيت بتعليقات كثيرة من النقاد، حتى ورد ذكرها في أكثر من أربعين مصدراً ، وصدق " أبو عمرو بن العلاء " حين قال : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " [1]

١ . غرض القصيدة

ومن أهم النقاط التي وقف النقاد بصددها في هذه القصيدة ، الغرض المنشود منها ، أو الهدف الذي يبتغيه الشاعر من نظمها ، واخبرنا شراح الشعر الجاهلي مرة بعد مرة أن المدح هو الغرض الحقيقي لهذه القصيدة ، وأن مطلعها الغزلي ، ووصف الطعن والظاعنات ، ووصف الناقة أيضاً ، وما ختمت به القصيدة إن هي إلا مقدمات للغرض الأصلي وتعليقات عليه [2].

ويشير الدكتور طه حسين إلى أن الغرض الأصلي من نظمها هو العتاب ، إذ يقول : " وشاعرنا يطيل شيئاً في غزله وعتاب صاحبته ووصف الطعائن ، وهو يطيل كذلك في وصف ناقته والفلاة ، فإذا انتهى إلى صاحبه الذي يريد أن يعاتبه لم يطل في العتاب ، وإنما انقطع حديثه فجأة " [3] .

١- الشعر والشعراء ١ / ٣٩٥

٢- انظر قراءة للشعر ١ / ٢٤٢ .

٣- حديث الأربعاء ١/ ١٦٦

على حين يشير الدكتور الربيعي إلى وصف الناقة هو العرض المنشود مبينا " أن الناقة - دون سواها - تبقى هنا محور العمل الشعري . ويبقى كل شيء عداها على هامش هذا العمل " [1].

والواقع أن الغرض الحقيقي من هذه القصيدة هو الفخر . فلو نظرنا بعمق إلى جميع موضوعاتها لوجدناها تتسم بالفخر . فالشاعر يهدف من وراء فخره هذا إلى أن يثبت لمحبوبته " فاطمة " أنه يتمتع بمكانة عالية ، وخصال نبيلة ، تجعله خليقاً بحبها، فتعاوده بوصلها وودها بعد قطعهما عنه.

والمثقب في نونيته جاء مخاطباً لعمرو بن هند في ثلاثة أبيات تعلوها نبرة عالية من العزة والكبرياء ، يقول فيها : [2].

إلى عمرو ومن عمرو أتتني
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرح حنى واتخذني
عدواً أتقيك وتتقيني

واختلف النقاد حول هذه الأبيات نتيجة لتلك اللهجة العالية التي تكتنفها. والتي لا تتفق في طبيعتها مع مخاطبة الملوك فهل المراد منها عمرو بن هند " الملك " أم عمرو عبيد ؟

١- قراءة الشعر ص ٢٦٢ .
٢- الديوان ص ٢٠٨ - ٢١٢

ومن هذا المنطلق أعلن الأصمعي " عن تشككه في أن المخاطب فيها عمرو بن هند " الملك " قائلاً

" أراد غير الملك ، لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام " [1].

كما أشار الأستاذ حسن كامل الصيرفي إلى تشككه في ترتيب هذه الأبيات بقوله : " ربما كانت الأبيات الواردة بعد البيت الأول - وهي التي شككت الأصمعي بلهجتها في أن يكون المخاطب هنا هو عمرو الملك - متأخرة عن موضعها لا سيما وأن ابياتاً أخرى من هذه القصيدة قد جرى التقديم والتأخير فيها أو أنه كان يوجه القصيدة إلى واحد من أهله وعشيرته ، ثم يقول له إنه تارك له بلاده ليذهب إلى حيث يقيم الملك " [2].

على حين يلمح الدكتور طه حسين إلى أن هذه القصيدة قد اقتضبت اقتضابا وضاع منها جزء غير قليل ، واعتمد في هذا على أن المثقب أطال في نسيبه وعتاب صاحبته ، ووصف الطعائن والناقة ، فإذا ما انتهى إلى صاحبه - عمرو بن هند - والحديث إليه لم يطل ، وانقطع حديثه فجأة [3].

والحق أن المثقب في خطابه لعمرو بن هند - الملك - يريد أن يظهر لمحدوثه مدى ما يتمتع به من مكانه ، تمكنه من مخاطبة الملوك بهذه اللهجة التي تعلوها الندية وعزة النفس ، فيقع هذا من قبلها حسنا يسمح له بمعاودة وصلها من جديد .

١- شرح المفضليات للتبريزي ٢ / ١٠٣٥

٢- ديوان المثقب تحقيق أ / حسن كامل الصيرفي ص ٢٠٩

٣- فطر حديث الأربعاء ١ / ١٦٦

ومن ثم فالمثقب لم يهدف في نونيته إلى مدح عمرو بن هند ، وإنما عرض له من قبيل الفخر بنفسه ، باعتباره موقفا يثبت من خلاله مدى قدره ومنزلته ، فجاء حديثه إليه موجزاً لم يطل فيه ، ولم يقتضب كما ذهب الدكتور طه حسين .

وهكذا حرص المثقب على الفخر في نونيته ، فجاءت موضوعاتها ملائمة لفخره حتى في نسيبه بمحبوبته " فاطمة " جاء متمسكاً بعزته ومعلناً لكبريائه قائلاً لها : [1].

أفاطم قبل بينك متعيني
ومنعك ما سألت كأن تبيني
ولا تعدى مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دوني
فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني

والمثقب بهذه اللهجة العاتية التي يخاطب بها محبوبته ، والتي يكشف من خلالها عن كبريائه وعزته في حبه ، جاء مخالفاً لعادة الشعراء في نسيبهم بصبواتهم ، إذ كانوا يتهالكون في صدودهم ، ويتخاذلون من علة الوجد على قلوبهم المستعرة ، وهذا مسلك شائع عندهم ، حتى غدا دليلا على إجادتهم في أشعارهم ونسبه إليه القدماء في قولهم ' يجب أن يكون النسيب الذي يتم به العرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون من الإباء والعزة وأن يكون

١- الديوان ص ١٣٦ - ١٣٩

جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض [1].

ومن هذا المنطلق انتقد الأستاذ عبد العظيم قناوى ، قول المثقب الذي يحذر فيه صاحبته من قطعها لوصله ووده .

لعلك إن صرمت الحبل مني

كذاك لكون مصحبتي قرونـي [2].

وعلق عليه قائلاً " وإذا كان هنا ما يمكن أن يؤخذ عليه فهو خشية القطعية إن صرمت حبله ، فالعاشق لا يملك زمام قلبه ، ولا يدفع جماح نفسه " [3].

والواقع أن المثقب في نسيبه لم يسلك هذا المسلك الشائع ، وإنما سلك ضرباً من الشعور الصداق والعميق بالصبو والشوق ، فالشاعر بعد أن قطعت عنه صاحبته ودها ، وبعد أن علاه الشوق أثار هذا الشعور في نفسه إحساساً بالشباب والقوة والكبرياء ، فراح يغنيها شعوره بالبطولة والأنفة والفعال الحميدة التي يتحلى بها ، والتي تجعله أهلاً لوصلها ، فتعاوده به " وهذا الضرب من الغزل الذي نرى حوله أنغام الاعتزاز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس الممتازة هو الأشبه بالشخصية العربية والإنسان العربي في هذه الحقبة من تاريخه ، وأن الصبوة إنما ستير عند هذا العربي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والتسنام والفتوة والعروسية " [4].

١- نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق د / محمد حمادي ص ١٣٤

٢- صرمت قطعت ، حبل العهد والود قرونى نسبي (الديوان ص ١٦)

٣- الوصف في العصر الجاهلي ص ٣٢١

٤- قراءة في الأدب القديم د / محمد أبو موسى ص ٧٣

ويلمح الدكتور " الربيعي " إلى هذا الضرب من السلوك في تساؤله عن المعنى من أن يعلن المثقب العبدي غضبه على فاطمة ، وعلى مثيلة لها في مقطع تال ، ويتساءل ذلك التساؤل الملئ بالمعنى بعد ذكر الملك عمرو بن هند مباشرة ، ثم لا يحدث ذلك مع الناقة ، رغم أنه خلع عليها صفات البشر وجعلها تشكو وتبرح كما يفعل الإنسان ؟ [1].

وحول الدكتور " طه حسين " أن يجد حلاً لهذا التساؤل بتحليل راح فيه إلى أن " الشاعر أنشأ قصيدته في العتاب ، وهو يفكر من غير شك في صاحبه الذي سيعاتبه حين ينتهي إليه أكثر مما يفكر في صاحبته التي يطلب إليها المتاع فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة الغليظة القاسية ووجه إليها هذا النذير الخشن الغليظ ، فهو خليق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازماً ومتشدداً قاطعاً ، لا يحب الهوادة ولا اللين " [2].

والصواب أن المثقب جاء بتلك اللهجة العالية في خطاب لمحبوبته " فاطمة " وكذلك في محاطبته لعمرو بن هند ، من قبيل الفخر والاعتزاز بنفسه وكبريائه فحسب ، وليس من قبيل العصب - كما ذهب الدكتور الربيعي - بدليل أن المحرك لهذا الفخر هو حبة لفاطمة ، فهو يهدف من وراء فخره إلى وصلها من جديد .

ولم يفعل ذلك مع ناقته من قبيل حبه لها وإجلاله لمكانتها ، فالناقة في نظر الجاهلي قادرة على كل شيء فهي تعين على قطع القفار الموحشة ، وإليها يرجع الفضل في انتشال الشاعر من همومه وأحزانه ، وحمايته من مخاطر الصحراء .

١- انظر قراءة الشعر ص ٢٦٢

٢- انظر قراءة الشعر ص ٢٦٢

ولعل كل هذه التساؤلات من النقاد ترجع في أصلها إلى عدم وقوفهم على الغرض الحقيقي من نظم النونية وهو الفخر.

٣ . النحل في شعره :

ومن أهم القضايا التي أثيرت حول شعر المنقب العبدي - وبخاصة في نونيته - قضية الوضع أو النحل . ويعد الدكتور طه حسين " من أبرز من تعرضوا لشعر المنقب من هذه الناحية ، وذهب الدكتور في اتهامه لشعر المنقب بالوضع أو النحل إلى أمرين :

عدم وضوح شخصية المنقب في شعره . وأشار إلى هذا خطابه لمحدثه قائلاً . " ما رأيك في صوت تحمله القرون الطوال حتى تنتهي به إليك وحتى تنتهي به إلى مَنْ بعدك من الأجيال ؟ وأنت تسمع الصوت وتتبين جرسه ونغمه . وتتتبعه متراجعا مع هذه القرون ، حتى إذا انهيت إلى آخرها أو إلى أولها ، لا تجد شخصا بينا ، وإنما وجدت شخصا شائعا ، ويعجبني الشعر الذي لا تستطيع أن تنتهي به إلى شاعر معروف واضح الخصال . بيّن الشخصية . يعجبني لأن فيه علامة تأتيه من هذا القدم الذي يخفي علينا مصدره إخفاء " [1].

والواقع أن شخصية الشاعر في شعره تتكشف من ناحيتين . الناحية الأخلاقية وتتمثل في أفكاره ومعتقداته وخصاله الخلقية . والناحية الفنية . وتتمثل في الخصائص الفنية المميزة لشعره . والتي يختص بها عن غيره من الشعراء.

ويلمح ابن رشيق في حديثه عن حقيقة الشاعر إلى مقومات الشخصية، قائلاً " وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر ما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عند

١- حديث الأربعاء ١ / ١٦٤ - ١٦٥ .

الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استطراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أحدث فيه غيره من المعاني ، أو نقص أمثاله سواء من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي مع التقصير " [1].

والحق أن شخصية المتنبي العبدي تبدو واضحة جلية في جميع أشعاره وتترسم ملامحها من خلال أشعاره كما يلي :

فها هو ذا يخاطب محبوبته فاطمة بلهجة عالية بعيدة عن الذل والهوان مبين عزته وكبرياءه في حبه .

فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني
إذا لقطعتها ولقلت بيني
كذلك أجتوى من يجتويني

وهو القائل في خطابه لعمرو بن هند مبينا منزلته ومكانته

إلى عمرو ومن عمرو انتمي
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني
عدواً أتقيك وتتقيني

١- شعر حبيث الإرعاء ١ / ١٧٠

وأشاد الدكتور طه حسين نفسه بهذه الأبيات ، مبيناً أن الناس حفظتها لأنها راعتهم وأعجبتهم حقا " [1].

ولعلها راعتهم وأعجبتهم من قبيل مخالفتها لعادة الشعراء عند مخاطبة الملوك فالمتنبي هنا يظهر جرأته وشجاعته في مخاطبته لعمرو بن هند ، ولم يستعطفه أو يمدحه طمعا في عطاياه، وهذا ما لم يكن معهودا لديهم .

وهو القائل على لسان ناقته مبينا صدق إحساسه، ودقة شعوره :

تقول إذا درأت لها وضيني

أهذا دينه ودبني ؟

أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقي على وما يقيني ؟

وأشار الدكتور طه حسين إلى أنها من أروع ما قال الناس ، لا في اللغة العربية وحدها ، بل في غيرها من اللغات [2].

وهو القائل في مكر الأقدار بالناس وجهلهم بما تضمره لهم :

وما أدري إذا يممت وجها

اريد الخير أيهما يليني

أألخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني ؟

١- انظر حديث الأربعاء ١ / ١٧٠

٢- انظر حديث الأربعاء ١ / ١٧٠

ألا تكفي كل هذه النماذج الشعرية - للمثقب العبدي - مما تحويه من سمات فنية ، وخصال خلقية ، في رسم شخصية قوية ، لها خصال بينه ، وشاعرة صادقة ؟

هذا بالإضافة إلى ما ذكره الدكتور طه نفسه عندما شهد للمثقب بأنه " كان حفيف الروح ، عذب الحديث ، قوى النفس ، شديد الحرم ، يكاد ينتهي إلى شيء من الغلظة ، رقيق القلب مع ذلك يكاد يذوب رقة ولينا " [1].

فهو يؤكد تفرد المثقب بشخصية قوية ، لها سمات خاصة ، تميزه عن غيره ، كما أنه أشاد به في موضع أخر يقول فيه " ويعجبني أن أقف عند هذا الشعر الذي بقي وثبت ، واكره الرواة على روايته والشراح على شرحه وتفسيره ، وأتاح للغويين وأصحاب النحو أن يستنبطوا فيه كلمات كانوا يجهلونها ، ومذاهب في النحو لعلهم لم يكونوا ليهتدوا إليها " [2].

وفي هذا ما يؤكد وضوح شخصية المثقب وقوتها في شعره ، وإلا فكيف توافرت لهذا الشعر كل هذه المقومات من القوة والشموخ ، حتى بقي ثابتا ، واستطاع أن يكره الرواة على روايته ، والشراح على تفسيره ، ولم تتوفر فيه سمات الشخصية البينة، رغم أنه ترجمة عنها، وصدى لأنفاسها !؟

٣ . المقدمة :

اتسمت القصيدة في بدايتها بنج فني جديد - بالنسبة لعصرهم وهو نهج الولوج إلى لب الموضوع مباشرة دون التمهيد له بمقدمة طللية معهودة ، يتباكى أصحابها من خلال على ما بقي في قلوبهم من طيب ذكرياتهم المنصرمة ، وحرارة

١- المرجع السابق ١ / ١٦٥ - ١٦٦
٢- المرجع السابق ١ / ١٦٥

الشوق لاسترجاع عبق أريجها ، وهو ما درج عليه شعراء عصرها ، واعتبروه شرطا لازما لتوافر عناصر القوة والإجادة في تدبيج القصائد الحسنة إلا أن المتقب العبدى في مقدمة هذه القصيدة حالف هذا النهج وقصد إلى لب موضوعه مباشرة دون تمهيد أو تقديم ، فخاطب صاحبته مباشرة في مطلع قصيدته قائلاً :

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنعك ما سألت كأن تبيني

والناظر في هذا المطلع يتجلى له مرجع الأمر في قصد الشاعر إلى هذا النوع .

ويتمثل في سببين رئيسيين :

أولهما : شدة حبه وشغفه بمحبوبته ، فهو مُعْنِيٌ بحبها في المقام الأول وقبل كل شيء فكان اهتمامه أولاً ببث أشواقه ونجواه لقلبها حتى يستميله فتعدل عن عزمها في الارتحال .

وثانيهما : ضيق المقام المفروض على الشاعر نتيجة لشروع صاحبته في الارتجال الفعلي مع صويحباتها ، مما دفع به إلى سرعة مخاطبتها مباشرة دون تريث أو إبطاء حتى يثنيها عن عزمها ، تدل عن ارتحالها وتعاوده لوصلها وودها من جديد ، وبخاصة بعد أن راح يغنيها كل هذه المواقف الفخرية التي تجعله خليقا بحبها وأهلا لوصلها وودها حتى لا تردد في مواصلة عهدها معه .

٤ . الوحدة :

استطاع العبدى أن يوفر لهذه القصيدة عديداً من الوحدات الفنية التي تساعد على إبراز أواصر الصلة بين أبياتها ، فوفر لها الوحدة الشعورية وتتمثل في

هـذا الشـعور الفخـري المفعـم بالصـدوة والفحولـة والاعتـزاز، والمخـيم علـى جميـع أبيـات القصـيدة حتـى لنكـاد نستشعره في كـل كلمـة منهـا . والمتفجـر في قلـب الشـاعر نتيجـة لعـدول صـاحبته عنـه بوصـلها وحبهـا ، ممـا آثـار كـوامن الفحولـة والحميـة في نفسـه ، وبخاصـة وهـو العربـي الأدبـي الـذي يتمتـع بكـل هـذه الخصـال الـتي تشـهد علـى صـدوته وفحولتـه . كمـا وفـر لهـا الوحـدة الفكريـة وتتمثـل في وحـدة الهـدف أو الغـرض الـذي قصـد إليـه الشـاعر مـن وراء نظمـة لأبيـات هـذه القصـيدة بنهجهـا المنظومـة فيـه ، متمـثلاً في اسـتمالة قلبهـا حتـى تعـدل عـن ارتحالهـا وتعـاوده ووده مـن جديـد ، ومـن ثـم فقـد هـداه فكـره إلى اسـتعراض كـل هـذه المفـاخر أمامهـا - بدايـة مـن مخاطبتـه لهـا بتلـك اللهجـة الأمريـة الـتي تعلوهـا نـبرة العـزة والكبريـاء ، ثـم باسـتعراضـه لكامـل سـيطرته وتمكنـه مـن ناقتـه الـتي تمتلـك كـل هـذا القـدر مـن مظـاهر القـوة والصـلابة ، ثـم باسـتعراضـه لطبيعـة علاقتـه بعمـرو بـن هنـد والـتي تعلوهـا النديـة والاعتـداد بـالنفس - حتـى يكشـف لهـا عـن مكانتـه الـتي تجعلـه خليقـا بحبهـا ، فتعـاوده بوصـلها ووده . كمـا وفـر لهـا الوحـدة الفنيـة وتتمثـل في وحـدة الطـابع اللغـوي والأسـلوبي المخـيم علـى أبيات القصيدة ، هذا بالإضافة إلى وحدتي الوزن والقافية .

وهكـذا تنطـوي القصـيدة علـى عـدة وحـدات فنيـة تقـوى أواصـر الصـلة بـين أبياتهـا بصـورة تتـيح للنـاظر فيهـا أن يحكـم عليهـا بتـوفر الوحـدة العضـوية فيهـا بقـدر مـا تـوافر لهـا مـن وحـدات (كالوحـدة الشـعورية ، والوحـدة الفكريـة ، والوحـدة الفنيـة، ووحدتي الوزن والقافية) .

ولعـل هـذا الـرأي لا يوافـق كـثيراً ممـن يحـردون الشـعر الغنـائي مـن الوحـدة العضـوية نظـراً لتـداعي أفكـاره وتـوارد خـواطره علـى مخيلـة الشـاعر في غـير ترتيـب مسـبق أو إحكـام بنـائي مقصـود ، إلا أن الحقيقـة الماثـلة - والـتي لا جـدال فيهـا -

أن الوحدة العضوية عبارة عن مزيج منصهر من تلك الوحدات السابقة في بوتقة واحدة ، بحيث تمتل كل وحدة منها رافداً من روافد الوحدة العضوية ، ولا يكن لأي عمل أدبي - مهما يكون نوعه - أن يكون خاليا من كل هذه الوحدات . وإنما الأصوب أن نحكم بتحقق الوحدة العضوية في العمل الأدبي بقدر ما توافر فيه من الوحدات المكونة لها .

5 . اللغة والصياغة :

اتسمت القصيدة في لغتها بالتنقل بين السهولة والوضوح تارة ، وبين القوة والغموض تارة أخرى ، فأحيان تنساب من حداول ألفاظه كلمات تتسم بالرقة والوضوح فتكتشف عن مضمونها في سهولة ويسر دون معاناة أو تكلف نحو (متعيني . تبيني . غزلان . الدانيات من الغصون . الدياح . الشر المصون) .

وتارة تنطلق كلماته غامضة تحتاج إلى مزيد من الجهد للوقوف على معناها نحو الوصاوص ، والسناف ، والتقنات " وما يتراءى لنا أحياناً من صعوبة متابعة الشعر لا يرجع إلى عمقه أو فلسفته بقدر ما يرجع إلى غرابة ألفاظه علينا في هذا العصر ، ووضوح الشعر الجاهلي بصفة عامة أو غالبه تفسره طبيعة الحياة الجاهلية نفسها ، الحياة البسيطة غير المركبة ، الواضحة غير المعقدة ، حياة الصحراء الواسعة التي ينطلق فيها الإنسان " [1].

وقد اعتمد الشاعر في قصيدته على عديد من الأساليب الفنية التي تشيد على براعته الشعرية ، كالترخيم في قوله :

١- الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه لنبية د / بهي الدين ريان ص ١٥٠ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢م

أفـــاطم قبـــل بينـــك متعينـــي

ومنعك مـــا ســـألت كـــأن تبينـــي

والترخـيم في اللغـة التليين ، ومنـه الترخـيم في الأسمـاء ، لأنهـم إنمـا يحـذفون أواخرها ليسهلوا النطق بها " [1].

والترخـيم عنـد المثقـب لا يقـف عنـد حـدود الإحسـاس بـالقرب أو الاحتضـان فحسـب ، بـل ارتـبط ارتباطـا وثيقـاً بالحالـة النفسـية لـدى الشـاعر ومـا يقتضـيه الحـال، وذلـك كقولـه السـابق : إذ جـاء النـداء في قولـه " أفـاطم " بـالهمزة وهـي لنـداء القريـب ، فهـي حاضـره في قلبـه ، قريبـة مـن روحـه ، وإمعانـا في هـذا القـرب - وكأنمـا قـد احتضـنها بقلبـه وروحـه - رخـم باسمهـا " فاطمـة " فحـذف آخـره فجـاء البنـاء " أفـاطم " بـالترخيم والنـداء بـالهمزة خـير شـاهد علـى مكانـة هـذه المحبوبـة في قلبـه كمـا جـاء الترخـيم هنـا موافقـاً لمقتضـى الحـال إذ وجـد الشـاعر صـاحبته الـتي ملكـت عليـه قلبـه قـد تأهبـت للرحيـل فـأراد مخاطبتهـا في عجلـة قبـل رحيلهـا ، فكـان الترخـيم خـير معين له نظرا لضيق المقام .

ومن الأسـاليب البديعية التي اعتمد عليها الشاعر في قصيدته الطناق ، وذلك في قوله :

فـــإني لـــو تخـــالفني شـــمالي

خلافك ما وصـــلت بهـــا يمينـــي

إذ طابق الشاعر بين الجهتين " اليمين " و" الشمال " لما بينهما من تضاد

ومن أمثلة ذلك قوله أيضاً :

فإمـــا أن تكـــون أخـــي بحـــق

فاعرف منك غثـــي مـــن ســـميني

١- لسان العرب مادة رخم

وإلا فـــاطر حنـــى واتخـــذني

عـــدواً أتقيـــك وتتقينـــي

إذ جـاء مطابقـا في البيـت الأول بين اسمين " العنت والسمين " . وهمـا من الصفات الحسية ، على حين طابق في البيت الثاني بين فعلين " اطرحني واتخذني"

ومن الأساليب البديعية التي اعتمد عليها أيضاً في قصيدته الاستفهام ، وذلك كقوله :

لمن ظعن تطـالع مـن ضـبيب

فما خرجت من الـوادي لحـين ؟

تبصر هل تـرى ظعنـاً عجـالاً

بجنب الصحصحان إلى الـوجين ؟

إذ شـخص الشـاعر مـن نفسـه شخصـاً آخـر - علـى سـبيل التجريـد - ونوجـه إليـه مخاطبـاً في الأسلوب الاستفهامي ، والاستفهام هنـا يكشـف أبعـاد تلـك الحالـة النفسية التي تكتنف الشاعر ، إذ توجـه إلى متسـائلا لمـن هـذا الظعـن وهـو يعلـم أنـه لصـاحبته ، وكأنمـا يمنـى نفسـه أن يكـون هـذا الظعـن لشـخص آخـر. فـلا تقـوى نفسـه على تحمل الحقيقة ، وهي ظعن المحبوبة .

وفي قولـه " تبصـر هـل تـرى ظعنـا " يـبين أن عينيـه لا تقـوى علـى المشـاهدة بنفسـها مـن شـدة دموعهـا المنهمـرة ، فيتوجـه إلى صـاحبة متلمسـاً منـه أن يبصـر نيابة عنه ، حتى يمتعه بحديثه عنها .

ومن استفهاماته أيضاً قوله يتحدث على لسان ناقته

تقـــول إذا درأت لهـــا وضـــيني

أهـــذا دينـــه أبـــداً ودينـــي ؟

وقد يأتي باستفهامين في بيت واحد كقوله

أكـــل الـــدهر حـــل وارتحـــال

أما يبقـــي علـــى ومـــا يقينـــي ؟

والاســـتفهام هنـــا معنـــاه التعجـــب والتقريـــع ، وكـــرر الاســـتفهام مبالغـــة في التعجب كما يومئ هذا الاستفهام إلى عدة إشارات منها :

١. دقـة ورهافـة حسـه إذا اسـتطاع أن ينفـذ إلى بـواطن ناقتـه ويستشـعر وجدانها بهذا القول .

٢. شـعور المثقـب بظلمـه لناقتـه وإثقالـه عليهـا في رحلاتـه ، حتـى أنهـا لـو قـدر لهـا أن تـتكلم لأعربـت عـن شكواه بهـذا القـول ، وفي هـذا مظهـر مـن مظاهر اهتمامه بها وحبه لها .

٣. إحسـاس المثقـب بالضـيق والملـل مـن كثـرة ترحالـه ، فعبر عـن إحساسـه هذا على لسان ناقته حرصا منه على مظهره أما صاحبته .

هـذا وقـد حـوت القصـيدة عديـداً مـن الصـور الفنيـة الـتي تشـهد علـى اقتـدار صاحبها وتمكنه من أدوات فنه ، ومن تلك الصور قوله :

يجـــذ تـــنفس الصـــعداء منهـــا

قوى السبع المحـــرم ذي المتـــون

تصـــك الجـــانبين بمشـــفتر

لـــه صـــوت أبـــح مـــن الـــرنين

كـــأن نفـــى مـــا تنفـــى يـــداها

قـــذاف غريبـــة بيـــدي معـــين

وهي صورة كلية تكشف عن قوة ناقته وشدتها ، وتتكون من ثلاث صور جزئية تتمثل كل واحدة منها في بيت مستقل ، وتتضافر فيما بينها لتعطي مشهدا متكاملاً ينطق بالقوة والنشاط من جميع جوانبه .

ففي البيت الأول يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها عند تنفسها حتى أنها لتكاد من شدة تنفسها واتساع صدرها أن تقطع سير الرحل عند التنفس ، وهي صور حسية بصرية مفعمة بالحركة تعتمد على خيال بسيط استمد روافدها من واقعه المشاهد .

وفي البيت الثاني يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها من زاوية أخرى يعكس فيها سرعة ناقته وشدة عدوها، حتى أنها من فرط سرعتها تقذف حانيها بعض الحصى المتطاير من وقع نعماته دوى الرنين بل هو أقوى ، وهي صورة حسية بصرية مفعمة بالحركة أيضاً تعتمد على خيال خصب بسيط يستحلب روافدها من واقعه المشاهد ويعاود تركيبها أو رسم معالمها بعد إعمال خياله فيها .

وفي البيت الثالث يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها من زاوية جديدة ، يعكس من خلالها شدة سرعة ناقته وشدة صلابتها في عدوها ، حتى أنها من شدة وقع قدمها على الأرض في عدوها تطحن ما يقع تحت قدمها من حصى فيبدوا دقيقاً في صغره وكأنه طحين منعت من بين شقي رحي قوية سريعة الدوران ، وهي صورة حركية تعتمد على الحسن في إدراكها ، أعمل فيها الشاعر خياله إلى حد بعيد حتى استطاع أن يأتي بها على هذه الشاكلة المفعمة بالحركة والنشاط من جميع جوانبها .

وهكذا استطاع الشاعر أن يحاور بين هذه الصور الجزئية الثلاث في مقدرة فائقة نمكن من خلالها أن يصور مشهداً متكاملاً يموج بالحركة من جميع جوانبه

ومن بديع صوره أيضاً قوله يصور سرعة ناقته :

فسل الهم هنك بذات لوث

عذافرة كمطرقة القيون

بصادقة الوجيف كأن هراً

يباريها ويأخذ بالوضين

فها هو ذا يجمع بين صورتين أحداهما ساكنة يدعو فيها نفسه إلى إزاحة الهم عنه باستطاعته لناقته القوية الصلبة التي تشبه فيها صلابتها وشدتها مطرقة الحدادين ، والثانية متحركة يصور فيها سرعة ناقته العانية واستمرارها وكأن هرا معلقا بجانبيها ينهشها بأنيابه وبخالبه فتجد في عدوها للفرار من شراسته . وهما صورتان حسيتان اعتمد الشاعر في استجلاب روافدها على واقعه المشاهد بعد إعماله لخيال خصيب وبخاصة في صورته الثانية التي جاءت مشعة بالنشاط والحركة من جميع حوانبها .

٦ . الموسيقى :

وقد اختار الشاعر لقصيدته بحر الوافر ، وتفعيلاته (مفاعلتن مفاعلتن فعولن) في كل شطر . وهو من البحور اللينة العليعة يشتد إذا شددته ويرق إذا رققته ، وأكثر ما يجود به النظم في الفخر .[1] ومن ثم فهو بحر يتواءم مع عاطفة الشاعر الجياشة والمفعمة بمشاعر الصمود والبطولة والاعتزاز .

كما اتخذ الشاعر من حرف النون المكسورة رويا لقصيدته ، وقد اعتنى بناء وصل ممدودة حتى يتيح لنفسه مساحات رحبة تعينه في التنفيس عما يداخله من

١ - انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٩٣/١ تحقيق أ . احمد محمد شاكر ط٢ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢م

جيشان مشاعر الحمدة والكبرياء ، وبذلك تتواءم القافية مع الوزن في إيحاد مناخ ملائم لعاطفة الشاعر وعمق تجربته . وبهذا الوزن والقافية تمتعت القصيدة بنبرة موسيقية عالية الجرس ، واضحة الرنين ، اعلت من قدر شاعرنا ومكنت لشعره وشاعريته في قلوب السامعين . مما دفع بأبي عمرو بن العلاء بتعقيبه على هذه القصيدة بعد سماعها واستحسانها بقوله مادحا : " لو كان الشعر منلها لوجب على الناس أن يتعلموه " هذا بالإضافة إلى إنها حظيت بتعليقات كثيرة من قبل الأدباء والنقاد . حتى ورد ذكرها في أكثر من اربعين مصدراً .

النثر الفني في العصر الجاهلي

اثر عن العرب في العصر الجاهلي نثر كثير وكلام غزير . كما أثر عنهم شعر جيد . وكان العرب يستخدمون نثرهم في شتى معاملاتهم . وساثراً أغراضهم الحياتية . ومن ثم كانوا يحتفلون له . ويهتمون به . ويختارون له الألفاظ القوية المعبرة والمعاني الشريفة . والأساليب الرصينة . وكانوا يطلقون على هذا النوع من الكلام النثر الفني لأنهم كانوا يعتنون به عناية فائقة . وهذا النثر يعطينا صورة صادقة عن حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد تعددت أنواع النثر الجاهلي . وأهم هذه الأنواع هي :

١. الخطب . ٢. الوصايا . ٣. الأمثال والحكم .

الخطب .

الخطب مأخوذة من " الخطب " . وهو الأمر الخطير . لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور العظيمة . والأحوال الخطيرة . ولا يسمى الخطيب خطيباً إلا إذا غلب ذلك عليه وعلى وصفه . وصارت الخطابة صناعة له .

والخطبة كلام قوي معبر . ذو دلالة عميقة . وشأن عظيم من التأثير . يلقي هذا الكلام على حشد كبير من الناس لإقناعهم بما يعود عليهم بالخير العميم والنفع العظيم في دنياهم وآخرتهم .

صفات الخطيب :

وضع أهل الجاهلية بعض الصفات لشخصية الخطيب البارع . ورأوا أنه لا يكمل الخطيب في نظرهم إلا إذا تحققت تلك الصفات في شخصيته . فمنها أن

يكون شريف الأصل ، صادق الحديث ، جهير الصوت ، قليل ، التلفت ، راسخ ، نظيف الملابس والهيئة ، حسن السمات ، يطابق قوله فعله، ذا وقار وسكينة وهدوء على أدب جم وأخلاق سامية . وكانوا يمدحون فيه رباطة الجأش ، والتباته وابتعاده عن الارتعاش والارتعاش والحصر والعي ودقته في اختيار الألفاظ وعنايته بالأساليب والمعاني . قال الجاحظ " أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير الألفاظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة . ويكون في قوله فضل التصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفيها كل التصفية ".

وكان للخطباء في العصر الجاهلي أصول مرعية ، وعادات متبعة . وسنن مطروقة في أداء خطبهم ، فقد كانوا يخطبون في المواسم والمحافل العظيمة ، والمجالس الكبيرة على رواحلهم . وكانوا يلوحون أثناء إلقاء الخطب بالعصى والقسي والرماح قال " الجاحظ " في ذلك " كانت العرب تخطب بالمخاصر وتعتمد على الأرض بالقسي وتشير بالعصي والقنا حتى كانت المخاصر لا تفارق أيدي الملوك في مجالسهم ".

وكان الخطباء في العصر الجاهلي يطيلون خطبهم أحيانا ويقصرونها أحياناً أخرى، يفعلون ذلك مراعاة لما يقتضيه المقام ، وما يتطلبه الحال . قال " أبو عثمان الجاحظ " أعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر البدو والحضر على ضربين منها الطوال ومنها القصار . ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه ، ومن الطوال ما يكون مستويا في الجودة ومتشاكلاً في استواء الصنعة يحسن فيه ومن الطوال ما يكون متشاكلاً في استواء الصنعة ومنها درات الفقر الحسان،

والنقد الجياد ، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليد في بطون الصحف ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع ' .

مجالات الخطابة :

والخطابة تستعمل في إصلاح ذات الدين ، وإطفاء نائرة الحروب ، وقضاء الديات ، والتسديد للملك ، وإثارة المشاعر ، وإيقاظ العواطف ، وبعث الهمم لخوض المعارك ببسالة وجرأة ورباطة جاش ، وتستعمل كذلك في التأكيد للعهد في عقد الأملاك ، والإشادة بالمناقب ، والوعظ والإرشاد ، والتقويم والتهديد والإصلاح ، وعقد الاتفاقات ، وابرام العهود ، وأخذ المواثيق ، ونشر المودة والألفة والمحبة ، والمناسبات الاجتماعية مثل العزاء ، والزواج ، والتهنئة ....

أنواع الخطابة :

من يتتبع الخطب المختلفة ويحاول أن يقف على أنواعها يلاحظ أنها متعددة الأنواع ، مختلفة الألوان والاتجاهات ، والموضوع الذي يتناوله الخطيب هو الذي يجعل الخطب متعددة الأنواع متباينة الألوان والاتجاهات . وها هي ذي أنواع الخطب :

١. خطب الوفود .
٢. خطب الرثاء والعزاء .
٣. خطب الصلح .
٤. خطب الزواج
٥. خطب الحرب والتحريض .
٦. خطب التهنئة .
٧. الخطب السياسية والبرلمانية .
٨. خطب التكريم والمديح .
٩. خطب الاستخلاف والولاية .
١٠. خطب الفتوح .
١١. خطب الدين والوعظ والإرشاد .
١٢. خطب المفاخرات والمنافرات .

١٣. الخطب القضائية . ١٤. الخطب العلمية .

١٥. خطب المناظرات . ١٦. خطب المدافعة والاتهام .

والحق أننا لم نقف على هذه الأنواع فيما بين أيدينا من نثر جاهلي ، وأشهر ما وقفنا عليه من أنواع الخطابة الجاهلية ما يلي :-

١. خطب الوفود . ٢. خطب إصلاح ذات البين .

٣. خطب الاستنهاض والدعوة إلى الحروب .

٤. خطب المنافرات والمفاخرات. ٥. خطب الزواج .

٦. خطب التعزية والرثاء .

أشهر الخطباء في الجاهلية :

أنجب العصر الجاهلي كوكبة عظيمة من الخطباء ، أثروا الحياة الأدبية وزودوا المكتبة الجاهلية بمجموعة طيبة من الخطب التي تأسر الألباب وتستحوذ على الأفئدة بما تتسم به من فصاحة نادرة ، وبلاغة سامية ، فمن أقدم خطبائهم " كعب بن لؤي " ، وهو الجد السابع للنبي ﷺ ، وكان كعب هذا يخطب للعرب جميعا ، ويحضهم على البر ، ويحثهم على الصلاح والاستقامة ، ولما مات هذا الخطيب المصقع أكبروا موته ، وأرخوا به إلى عام الفيل . ومن أشهر خطباء الجاهلية أيضاً " قيس بن خارجة " خطيب حرب داحس والغبراء ، و" خويلد بن عمرو العطفاني " خطيب الفجار ، " وقس بن ساعدة " خطيب " عكاظ " الذي استمع إليه النبي ﷺ في سوق " عكاظ " . " وأكثم بن صيفي " حكيم العرب المشهور ، وقاضيها ورئيس خطبائها . " وهشام بن عبد مناف " . " وعبد المطلب بن هشام " . " قيس بن عاصم " ، و" عمرو بن الأهتم " ، و" زهير بن جناب " خطيب كلب

وقضاعة . و " ربيعة بن حدار " خطيب بني أسد . و " عامر بن الطرب العدواني " أحد حكام العرب في الجاهلية . " وهرم بن قطبة الفزاري " . و " عمرو بن كلثوم " خطيب تغلب . و " هاني بن قبيصة " خطيب بني شيبان " وابن عمار الطائي " خطيب مدحج .

وهناك غير هؤلاء كثيرون ذكرت مصادر الأدب والتاريخ أسماءهم . وهذه الكثرة تدل دلالة طاهرة على رقي النثر الفني في تلك الفترة . كما تدل على ازدهار الخطابة وسمو منزلتها في الأدب الجاهلي .

نماذج من الخطابة الجاهلية :

ونسوق الآن بعضاً من النماذج التي وقفنا عليها من الخطب الجاهلية لنقف على أنماط الخطابة لدى الجاهليين وسماتها ، ومكانتها عندهم .

١ . " أكثم بن صيفي " يعزي " عمرو بن هند " :

قال " أكثم بن صيفي " يعزي عمرو بن هند " ملك العرب عن أخيه

أيها الملك ! إن أهل الدار سعر لا يحلون عقد الترحال إلا في غيرها . وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام من ستظعن عنك ويدعك ، إن الدنيا ثلاثة أيام فامس عظة وشاهد عدل فجعل نفسه واقفي لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته ، طالت عليك غيبة ، وسيسرع عنك رحلته ، وغد لا تدري من أهله . وسيأتيك إن وجدك فما أحسن الشكر للنعم والتسليم للقادر ، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها . فما بقاء الفروع بعد أصولها!! وأعلم أن أعظم المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله

٣ . خطبة قس بن ساعدة في سوق عكاظ .

روى " أبو الفرج الأصفهاني " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال : ما فعل قس بن ساعدة ؟ قالوا مات يا رسول الله قال : كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق . وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة . ما أحدني أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله . قال كيف سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول :

أيها الناس : اسمعوا وعوا . من عاش مات . ومن مات فات . وكل ما هو آت آت . ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، بحار تزخر ، ونجوم تزهر ، وضوء وظلام وبر وآثام ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ وإله قس ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه . وأدرككم أوانه أو أنه . فطوبى لمن أدركه فاتبعه . وويل لمن خالفه ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأولين
من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها
يمضي الأصاغر والأكابر
أيقنت أني لا محا
لة حيث صار القوم صائر

٣ . خطبة أبي طالب عم الرسول ﷺ في تزويج خديجة بن خويلد :

قال أبو طالب : " الحمد الله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتاً محجوبا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد ابن عبد الله بن أخي من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلا وكرما وعقلا ومجداً ونبلا ، وإن كان في المال قل فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلي.

٤ . خطبة هاشم بن عبد المطلب في إكرام الضيف :

قال هاشم :

يا معشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها، وأعظمها أحلاماً، وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما ، يا معشر قريش : أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته ، وخصكم بجواره دون إسماعيل وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعثاً غبرا من بلد نورب هذه النية لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتموه ، ألا وإني مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم تقطع فيه رحم ولم يؤخذ بمظلم ولم يدخل فيه حرام فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل منها ذلك فعل .

وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم لكرامة زوار بيت الله ومعونته إلا طيبا لم يؤخذ ظلما ولم تقطع فيه رحم ولم يغتصب .

التعريف بالخطيب :

هو عمرو بن عبد مناف والد عبد المطلب جد الرسول ﷺ ، كانت له سقاية الحجاج وإطعامهم ، وكان أول من سن رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة

الصيف إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، وكان أحد الأجواد الذين ضرب بهم المثل في الكرم وحسن الضيافة . أنقذ قريشا من مجاعات كثيرة، وحماها من نوازل عديدة ، كادت أن تهز كيانها . وبشتت شملها ، وهو أول من هشم الثريد لقومه ، ولذلك غلب عليه أسم " هشام " . مات وهو في طريقه إلى الشام .

مناسبة الخطبة :

لما كانت سقاية الحجيج مسندة إلى " هشام بن عبد مناف " ، ولما كان العرب يحجون بيت الله الحرام كل عام كان على " هشام " ألا يدخر وسعا في توفير سبل الراحة والأمان لهم ، وبالفعل كان " هشام " يبذل قصارى جهده ووقته ليؤمن البلاد ، ويعبد السبل ، ويكرم الحجيج ، وكان من ذلك تكرار حثه لقريش على أن تعطي وتبذل وتكرم الحجيج ، وهذه الخطبة أثر من آثار اهتمامه البالغ بالحجيج .

معاني المفردات :

١. **الأحلام** : العقول .

٢. **أوسطها أنسابا** : أفضلها أنسابا

٣. **أقربها أرحاما** : أشدها قرابة

٤. **أكرمكم بولايته**: شرفكم بأن جعلكم قائمين على رعاية البيت .

٥ **إسماعيل** : هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام

٦. **أحسن ما حفظ جار من جاره** : أكرمكم بأن أحللكم بلدا آمنا

٧ **الأشعث** : الملبد الشعر من وعثاء السفر

٨. **البنية** : وهي الكعبة

٩. لكبيتموه : أي لو كان لي مال عنكم كل ما يقدم لحجاج بيت الله .

١٠. مواضعه : أي مخصصة لحجاج البيت .

١١ حرمة هذا البيت : حقه عليكم

أفكار الخطبة :

تقوم خطبة هشام على ثلاثة أفكار هي :

١. مدح قريش والثناء عليها .

٢. بيان تكريم الله لهم بأن جعلهم جيران بيته الحرام .

٣. حمل قريش على البذل والعطاء وإكرام الحجيج .

الدراسة والتعليق :

هذه خطبة من الخطب الكثيرة التي ورثناها عن أجدادنا الجاهليين ، قالها هشام بن عبد مناف ليحث قومه على حسن استقبال الحجيج ، وإكرامهم ، والعناية بأمورهم . وقد حاول هشام أن تتضمن خطبته ما يكفل لها بأن تكون حقيقة بإقناع من وجهت إليهم ، فالخطابة تقوم أولاً وأخيراً على الإقناع ، والخطيب مطالب قبل كل شيء بأن يقنع جمهور المخاطبين بما يقول .وإذا لقينا نظرة سريعة على الخطبة لاحظنا أنها تتضمن ثلاث أفكار ، جعلها الخطيب محوراً ، أدار خطبته حوله ، فكأني به من خلال هذه الأفكار قد قسم خطبته إلى مقدمة، وموضوع ، وخاتمة .

وإذا أمعنا النظر في المقدمة رأينا أنها تتضمن الثناء على قريش ومنداحهم بالشرف والرفعة وطهارة النسب ، وعراقة الأصل ، وكرامة المنبت ، وأرى أنه فعل

ذلك ليستميل عقولهم وقلوبهم إليه ، وليعطوه آذانهم ومشاعرهم ، ومن ثم يكون قريبا منهم ملتحما بهم .

أما الموضوع فيتضمن لفت أنظارهم إلى قدوم الحجيج شعثاً غبراً ، قد نالت منهم الغربة ، وأنهكهم السفر ، وأرهقتهم التنقل وطول الطريق ، كما يتضمن الموضوع أيضاً لفت أنظار قومه بأن الله قد كرمهم ، ورفع منزلتهم بأن جعلهم جوار بيته الحرام .

أما الخاتمة فقد ضمنها الخطيب الغرض الذي من أجله أنشأ خطبته ، وهو الحث على إكرام الحجيج ، وحسن استقبالهم ووفادتهم ، والعمل على راحتهم وأمنهم .

وقد حفلت الخطبة ببعض الألوان الفنية التي أضفت عليها الروعة والجمال ، وأكسبتها البراعة والجلال ، وقد تعددت الألوان الفنية في الخطبة ، نقف فيها على الصور البيانية ، والأساليب الإنشائية ، وكذلك الأساليب الخبرية

١. فمن الصور البيانية " يأتونكم شعثاً غبرا " فهذه كناية ، أوردها " هشام " في صورة حسية أعطت المعنى وضوحا ، ومنحته قوة وتأثير ، وقد أوردها الخطيب ليثير في نفوس قريش الرغبة في إكرام الحجيج ، وليحفزهم على البذل والعطاء ، ومن الصور أيضاً قوله " أحسنها وجوها " فهذه كناية عن الشرف والرفعة ، وقوله : " أوسطها نسبا " كناية عن عراقة الأصل ، وكرم المنبت ، وقوله : " بيت آل " له كناية عن الكعبة المشرفة .

٢. وقد نوع هشام أسلوبه بين الأسلوب الخبري والإنشائي ، فمن الأساليب الإنشائية في خطبته قوله " يا معشر قريش " وقد كرر هذا

النداء رغبة منه في استمالة قلوبهم والاستحواذ على عقولهم ، ومن الأساليب الإنشائية كذلك قوله : " أكرموا ضيفه " ، وقوله : " أسألكم بحرمة هذا البيت ، ومن الأساليب الخبرية قوله : أنتم جيران بيت الله " وقوله : " أنتم سادة العرب ".

٣. امتاز الخطبة بترتيب أفكارها ، حيث نلاحظ أن كل فكرة تسلم للأخرى ، وهذا ما أعطى للخطبة تماسكاً ، ومنحها تلاحماً وقوة سبك.

٤. خلت الخطبة من الألفاظ الغريبة . فألفاظها سهلة مأنوسة . لا غرابة فيها ، ولا حوشية ، فالألفاظ ذات معان واضحة . لا تكد الذهن ، ولا ترهق الفكر في استخراجها والوقوف عليها .

٥. أما معاني الخطبة فهي واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار. فلم نقف في الخطبة على غموض أو إغراق في معانيها ، كما لم نقف على تدخل ولا تعظل بين دلالاتها .

٦. خلت الخطبة من دلائل الصنعة التكلف ، فلم نقع فيها اهتمام كبير بالمحسنات البديعية والصنعة اللفظية ، وهذا ما يجعلنا نقول إن الرجل لم يتكلف في أداء خطبته وإنما ترك نفسه على سجيتها .

٧. الخطبة تشير دون شك إلى تغلغل الروح الدينية في نفوس العرب. فقد كانوا يكبرون البيت الحرام ويعظمونه ، ويكرمون زواره والوافدين إليه

الوصايا :

الوصية : في الحقيقة الأمر توجيه سديد ، ونصح خالص ، وإرشاد سليم . وحث على التمسك بأمر مهم وحفظ . والوصايا تصدر - عادة - من أناس عمروا طويلاً ، وخاضوا كثيراً من التجارب ، وعركوا الحياة وعركتهم ، وخبروا كثيراً من أمورها وشتى شئونها حتى أصبحوا على دراية كبيرة بعواقب الأمور وعلى علم تام بما ينفع ويضر . وبناء على ذلك نجد أن الوصايا تصدر في الغالب الأعم من أب رحيم على أبنائه أو أم حانية على بناتها ، أو زعيم راع على قومه .

دواعي الوصايا :

وهناك دواع تفرض على ذوى التجارب العريضة والآراء السديدة والعقول المستنيرة أن يقوموا بإصدار الوصايا وإرسالها ، ولعل من أهم هذه الدواعي الشعور بقرب الأجل وانتهاء الأمل ، والإحساس بتغير الأحوال ، ونزول الخطر .

نماذج من الوصايا في العصر الجاهلي :

١ . ذو الإصبع العدواني يوصي ابنه أُسيدا

قال ذو الإصبع :

يا بني إن أباك قد فنى وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته . فاحفظ عني ألن جانبك لقومك يحدبوا عليك وتواضع لهم يرفعوك واسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم . واسمح بمالك واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأعن من استعان بك ،

واكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريح فإن لك أحلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك سؤددك .

التعريف بصاحب الوصية :

هو حرثان بن الحارث العداوني ، عاش في العصر الجاهلي ، وعمر طويلاً . يعد من حكماء العرب ، وهو إلى جانب ذلك من الشعراء الفرسان ، فقد شهد وقائع كثيرة ، وخاض معارك مشهورة ، وله شعر جيد ، وسمي ذا الإصبع لأن حية نهشت إبهام قدمه فقطعه ، أو لأنه كانت برجله إصبع زائدة.

معاني المفردات :

١. **سئم العيش** : كره الحياة .
٢. **الن جانبك لقومك** : كن رفيقاً بهم في معاملتك إياهم .
٣. **ابسط لهم وجهك** : أي كن طلق الوجه، ودع العبوس والانقباض
٤. **ولا تستأثر عليهم** : أي لا تؤثر نفسك بشيء دونهم .
٥. **يسودك** : أي يجعلونك سيداً
٦. **واسمح بمالك** : أي لا تكن بخيلاً ، وكن جواداً كريماً
٧. **واحم حريمك** : حافظ على حرمتك واحم كل ما يجب حمايته
٨. **واعز عارك** : اصبر وكن سنداً له
٩. **الصريخ** : المستغيث
١٠. **لا يعدوك** : أي لا يتجاوزك أو يتخطاك .
١١. **صن وجهك** : احفظ ماء وجهك وحافظ على عزة نفسك
١٢. **السؤدد** : الشرف .

أفكار الوصية :

تدور وصية " ذي الإصبع " حول عدة أفكار ، نجملها في النقاط التالية :

١. كبر سنه وتأففه من الحياة وبغضه لها .

٢. الشيم الحميدة والخلال الكريمة التي تجعل المرء سيدا في قومه .

٣. نجدة الصريح .

٤. الابتعاد عن مواطن الذل .

معنى الوصية :

عندما نقرأ الوصية نلاحظ أن ذا الإصبع العدواني بدأ وصيته بالإشادة إلى أنه عاش عمرا طويلا ، وأنه خاض تجارب الحياة العريضة ، حتى أصبح عليماً بأمور قد تخفى على الصغار ، وأنه أصبح على مشارف الموت ، وأكبر الظن أنه فعل ذلك ليشير إلى خطورة ما يريد أن يوصى ابنه به ، وكذلك ليؤكد صدق ما يقول ، لأن ما يقوله نتيجة خبرته الطويلة في الحياة ، ثم أخذ ذو الإصبع يوصى ابنه ، ويحثه على أن يتمسك بمكارم الأخلاق ، وحميد الصفات أن يطرح الكبر جانباً ، ويتمسك بالتواضع ، فإنه إن فعل ذلك نال الحظوة في قومه ، والصفة الثانية التي حث ذو الإصبع ابنه على أن يتمسك بها هي صفة بسط الوجه وترك العبوس والتجهم ، وأخذ ذو الإصبع بعد ذلك في سرد الخلال الكريمة ووضعها إزاء ابنه ليتمسك بها كالكرم ، ونجدة الصريح ، والابتعاد عن مواقف الذل

تحليل الوصية :

١ لم يوجه " ذو الإصبع " مرة واحدة على ابنه ليوصيه ، وإنما قام بتمهيد بدأ به الوصية ألمح فيه إلى كبر سنه ، وقرب أجله ، وشعوره بالخطر ، وقد فعل ذلك ليستميل قلب ابنه إليه ، ولتكون وصيته ذات أثر فعال

٢. انتقل " ذو الإصبع " من التمهيد إلى ما يكفل لابنه حياة سعيدة كريمة في قومه ، فجعل يضع أمامه الخلال الطيبة التي تجعله في ألفة تامة ، وود مستمر مع أبناء قومه .

٣. يلاحظ أن " ذو الإصبع " قرن كل صفة بنتيجتها المترتبة عليها ، فلين الجانب يميل القلوب ، والتواضع يرفع صاحبه .

٤. وأهم ما يميز الوصية أن جملها قصيرة ، وعبارتها موجزة ، وأسلوبها قوي ومعانيها واضحة لا غموض فيها ولا التواء ، ومن ثم كانت الوصية أبلغ في التأثير واحظي بالقبول .

الأمثال:

المثل : قوله موجز مشهور يشبه به حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله ، ولكل مثل مورد ومضرب . فالمورد هو الحال التي قيل فيها المثل ، والمضرب هو الحال التي يقال فيها ، وتتميز الأمثال بأنها تصدر من وحي الفطرة السليمة ، تحت تأثير من الشعور الصادق ، والتجارب العملية .

وتتميز الأمثال كذلك بإيجاز ألفاظها ، وإصابة معانيها ، وما تتضمن عليه من حسن التشبيه ، وجودة الكناية ، ومن ثم فهي تهب الكلام رونقاً ، وتفرغ عليه قبولاً وحسناً .

وقد اهتم كثير من العلماء بجمع الأمثال وشرحها ، في مصادر مستقلة مثل كتاب " الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام " ، والأمثال " لأبي عكرمة الضبي " ، والأمثال " للمفضل الضبي " ، وجمهرة الأمثال " لأبي هلال العسكري" ، والمستقصى" للزمخشري "، ومجمع الأمثال " للميداني "، ويعد هذا الكتاب من أوفى الكتب وأفضلها وأشملها التي ألفت في هذا الموضوع ، فقد جمعه الميداني من خمسين كتابا ، ألفت جميعها في الأمثال ، ثم قام بترتيب أمثاله على حروف المعجم بعد أن أضاف إليها أمثال المولدين

وأمثال الجاهليين سجل حافل يضم كل ما يتصل بحياتهم الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، وتشير إلى كل ما تحتوي عليه بيئتهم من حيوانات أو نواحف أو حشرات أو ظواهر طبيعية ، والنظر في مجموع الأمثال الجاهلية يجد أنها صورت الحياة الجاهلية تصويراً دقيقاً ، وهذا ما يحدو بنا إلى أن نقول بكل اطمئنان إن الأمثال الجاهلية كانت بمثابة صورة صادقة للحياة الجاهلية ، وأنها

كانت تحق صوت المجتمع الجاهل الذي حسد آماله وأحلامه وآلامه وأتراحه وأفراحه . فمن الأمثال التي تعطينا صورة صادقة عن حياتهم السياسية وما كان يسري خلالها من خصومات بين الإمارات العربية والقبائل المختلفة قولهم : "أشام من البسوس" ، وقولهم : " لا ناقة لي فيها ولا حمل " ، وقولهم : " أحرى من داحس ".

ومن امثالهم التي تعطينا صورة صادقة أمينة عن نمط حياتهم الاقتصادية قولهم : " إنما الدلو بالرشاء " ، وقولهم : " أنفك منك وإن كان أجدع " .

ومن أمثالهم التي تشير إلى ما كان يقع عليهم من خطوب وكوارث قولهم : " سبق السيف العذل " ، وقولهم : " رأى فاتر وعدو حاضر " ، وقولهم : " بالصيف صعيف اللبن " .

ومن أمثالهم التي تشير إلى قوة إدراكهم لبواطن النفس البشرية قولهم : " حبك للشيء يعمي ويصم " ، وقولهم : " رب أخ لم تلده أمك " ، " مقتل الرجل بين فكيه " ، والمكثار كخاطب ليل " .

وإليك طائفة من أمثالهم لنقف من خلالها على سمات الأمثال وما تميزت به .

١ . لا تعدم الحسناء ذاماً ،

يضرب مثلاً للشيء الفاضل يكون فيه ما يشينه .

وأول من قال ذلك " حبي بنت مالك العدوانية "وكانت جميلة فخطبها مالك بن عسار "، فلما حملها قالت أمها لنسوتها إن لنا عند الملامسة رشحة، فإذا أردن إدخالها على زوجها فمحر أعطافها بما في أصدافها ، فلما أردن ذلك بها أعجلهن زوجها عن تطيبها ، فوجد منها رويحة ، فلما أصبح قيل له كيف

رأيت طروقتك ؟ قال : لم أر كالليلة لولا رويحة أنكرتها . فقالت من خلف الستر ، لن تعدم الحسناء ذاماً فذهبت مثلاً .

٣ . وافق شن طبقة :

وقصة هذا المثل أن شنا كان رجلاً من عقلاء العرب ، قال والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي فأتزوجها . فبينما هو في بعض مسيرة إذ وافقه رجل في الطريق فسأله شن أين تريد ؟ فقال : موضع كذا ، يريد القرية التي يقصد لها شن. فوافقه فلما أخذا في مسيرها قال له شن : أتحملني أم أحملك. فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملني ؟ فسكت عنه شن وسار إذا قربا من القرية إذا هما بزرع قد استحصد ، فقال له شن أترى هذا الزرع أكل أم لا ؟ فقال الرجل يا جاهل ترى نبتاً مستحصداً فتقول أتراه أكل أم لا ، فسكت عنه حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة . فقال شن أترى صاحب هذا انعش حيا أم ميتا ؟ فقال له الرجل ما رأيت أجهل منك ، نرى جنازة فتسأل أميت صاحبها أم حي ؟ فسكت عنه شن وأراد مفارقته ، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله فمضى معه . وكان للرجل ابنة يقال لها طبقة فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه فأخبرها بمرافقته إياه وشكا إليها جهله وحدثها بحديثه . فقالت يا أبه ما هذا بجاهل .

أما قوله أتحملني أم أحملك فأراد أتحدثني أم أحدثك حتى تقطع طريقنا، وأما قوله : أترى هذا الزرع أكل أم لا فإنما أراد أتاعه أهلوه فأكلوا منه أم لا ، وأما قوله في الجنازة فأراد هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا ؟ فخرج الرجل فقعد مع " شن " فحادثه ساعة ، ثم قال له أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه ؟ فقال . نعم ،

ففسره، فقال : " شن " ما هذا من كلامك فمن صاحبة ؟ قال ابنة لي . فخطبها فزوجه إياها فلما رأوها قالوا وافق شن طبقة يضرب مثلاً .

٣ . جوع كليك يتبعك ،

يضرب لما ينبغي ان يعامل به اللئام .

أول من قال ذلك ملك من ملوك حمير كان عنيفاً على أهل مملكته ، يغتصب أموالهم ، ويسلبهم حقوقهم ، وكانوا يخبرونه أنه سيقتل ، فلا يحفل بذلك، وأن امرأته سمعت أصوات السؤال فقالت : إني لأرحم هؤلاء لما يلقون من الجهد ونحن في العيش والرغد ، وإني لأخاف أن يكونوا عليك سماعا ، وقد كانوا لنا أتباعا فرد عليها ، جوع كليك يتبعك ، فأرسلها مثلاً . فلبث زمانا ثم أعزاهم فغنموا وحرمهم من الغنيمة ، فقالوا لأخيه وكان أميرهم ، إنا نكره خروج الملك فيكم وقد ترى ما نحن فيه فساعدنا على التخلص منه وأجلس مكانه فوثبوا عليه فقتلوه ، فمر به " عامر بن جديمة " وهو مقتول وقد سمع بقوله : جوع كلبك يتبعك فقال رما أكل الكلب مؤدبة إذا لم ينل شبعه ، فأرسلها مثلا يضرب لما ينبغي أن يعمل به اللئام

٤ .لا عطر بعد عروس ،

يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس .

وأول من قال ذلك امرأة من عذرة ، يقال لها " أسماء بنت عبد الله " ، وكان لها زوج من بني عمها يقال له عروس ، فمات عنها ، فتزوجها رجل من قومها يقال له نوفل ، وكان أعسر أبخر بخيلاً دميماً ، فلما أراد ان يجامعها قالت له

لو أذنت لي فرثيت ابن عمي وبكيت عند رمسه . قال : افعلي. فأنشأت تقول يا عروس الأعراس . يا أسداً عند الناس . مع أشياء ليس يعملها الناس . قال نوفل: وما تلك الأشياء ؟ قالت كان عند النعمة غير نعاس . ويعمل السيف صبيحات الباس . ثم قالت يا عرس الأعراس الأزهر الطيب الخيم . الكريم العنصر . مع أشياء ليس نذكر . قال : وما تلك الأشياء ؟ قالت : كان عيونا للخنا والمنكر . طيب النكهة غير أبخر . أيسر عير أعسر . فعرف أنها تعرض به فلما رحل بها قال : أيتها المرأة ضمي عطرك . وانظر على قشوة فيها عطرها مطروحة . فقالت : لا عطر بعد عروس فدهست مثلاً . ويقال إن رجلاً تزوج امرأة فوجدها تفله فقال لها أين الطيب ؟ فقالت حيأته . فقال لا عطر بعد عروس . يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس .

٥ . رب ساع لقاعد :

أول من قاله النابغة الذبياني شاعر النعمان بن المنذر . وقصة هذا المثل أن وفداً من وفود العرب أتى النعمان بن المنذر . وكان فيهم رجل من بني عبس يقال له شقيق . فمات عنده . فلما حبا " النعمان " الوفود بعث على أهل شقيق بمثل حباء الوفد فقال النابغة : رب ساع لقاعد .

٤ . جزاء سنمار :

يضرب لمن يجزي بالإحسان الإساءة .

ومعنى هذا المثل أن حزائي حراء سنمار . وسنمار رجل رومي بني الخورنق للنعمان بن امرئ القيس . ولما فرغ منه ألقاه " النعمان " من أعلاه فخر ميتاً . وإنما فعل ذلك به لئلا يبني مثله لغيره . فضربت العرب به المثل لمن يجزي بالإحسان الإساءة .

الحكم :

الحكمة قول يتسم بالإيجاز، يتضمن حكما إما يحث على الخير، ويدعو إلى الفضيلة، وإما ينهي عن الخنث، ويكف عن الشر، فالأمة العربية من أكثر الأمم إرسالاً للحكمة وإفرازاً لها، ويرجع ذلك إلى كثرة تجارب أبنائها في الحياة، وحصانة عقولهم، ورجاحة تفكيرهم من ناحية، ويرجع كذلك إلى فصاحتهم النادرة، وقوة تمكنهم من زمام الأساليب من ناحية أخرى.

والملاحظ أن الحكمة تجيء في الشعر كما تجيء في النثر، فتقف عليها في الشعر في صورة أبيات منظومة وموزونة داخل القصائد الطويلة، ونقف عليها في النثر الجالي في صورة عبارات دقيقة قصيرة موجزة من الوزن، تتضمن خلاصة تجارب عريضة لأفراد أو جماعات.

وقد حفظت لنا كتب الأدب ومصادر التاريخ كثيراً من أعلام الحكمة في العصر الجاهلي في الشعر والنثر، فمن حكماء الجاهلية، " ذو الإصبع العدواني " واسمه " عامر بن الطرب "، و " قس بن ساعدة الإيادي "، و " طرفة بن العبد "

وللحكمة أثر بالغ في الكلام، فهي تورث بهاء وقبولا، وتمنحه عدوبة وشرفاً، وترفع به، وتضعه في منزلة سامية، ومن ثم تقبل عليه النفس البشرية في لهفة، وترتاح إليه الأفئدة، وتطمئن إليه الأذهان، فالكلام الذي يشتمل على الحكمة يكون أمتع في الصدور وأوقع في النفوس، وأنق في الأسماع، وأسير في الآفاق، ولا شك في ذلك، فالحكمة تثير في النفوس حب الفضيلة وتدعو إلى الهداية وتحث على مكارم الأخلاق.

وإليك طائفة من حكم الجاهلية :

قال أكثم بن صيفي [1] .

حيلة من لا حيلة له الصبر .

العافية الملك الخفي .

من لم يأس على ما فاته أراح نفسه .

عدو الرجل حمقه وصديقه عقله .

الكرم حسن الفطنة وحسن التغافل . واللؤم سوء التغافل .

الحر حر وإن مسه الضر . والعبد عبد وإن كان في رغد

الحر لا يكون صريع بطنه ولا فرجه .

أحق من يشركك في النعم شركاؤك في المكاره .

الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة وإفراط الأنس مكسبة لقرناء السوء.

إن سرك من دمك فانظر أين يريقه .

لا تفش سرك إلى أمة ولا تدل على أكمة

الصمت يكسب أهلة المحبة .

وقال أيضا [2]:

من لا حاك فقد عداك . فصل القول على الفعل دناءة . وفصل الفعل على القول مكرمة . المكاسب الكريمة من مدارج الشرف . الوقوف عند الشبهة خير من اقتحام الهلكة من يصحب الزمان يرى الهوان . في كل عام سقام ومن كل حبرة عبرة كل درجة ترجة . من مأمنه يؤتى الحذر . رب صنيعة غرست من لحظة .

---

١ - أكثم بن صيفي ومأثوراته د. كمال الطواهر ص ٢١٣ وما بعدها دار الصاوي - ط ٢ - ١٩٩١م

٢ - السابق ٢٠٨

ورب حرب شبت من لفظة . رب كلمة سلبت نعمة . رب ملموم لا ذنب له . رضا الناس غاية لا تدرك . خير السخاء ما وافق الحاجة . ومن عرف قدره لم يهلك . ومن صبر ظفر . وأكرم أخلاق الرجال العدو .

حكم للصعقب بن عمرو بن النهدي [1]:

قال ابن دريد أخبرنا السكن بن سعيد الرموزي عن محمد بن عباد عن الكلبي قال : وفد " الصعقب بن عمرو النهدي " في عشرة من بني نهد على " النعمان بن المنذر " . وكان الصعقب رجلاً قصيراً دميما تقتحمه العين شريفاً بعيد الصوت . وكان قد بلغ النعمان حديثه . فلما أخبر النعمان بهم قال للأذان : ائذن للصعقب . فنظر الأذن إلى أعظمهم وأجملهم . فقال : أنت الصعقب ؟ قال : لا . فقال للذي يليه في العظم والهيئة : أأنت هو . فقال لا : فاستحيا . فقال ايكم الصعقب ؟ فقال الصعقب ؟ الصعقب : هانذا فأدخله إلى النعمان . فلما رآه قال تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ! فقال له الصعقب : أبيت اللعن : أن الرجال ليسوا بالمسوك يستقسى فيها . انما الرجل باصغريه بلسانه وقلبه ؟ أن قاتل قاتل بحنان . وأن نطق نطق ببيان . فقال له النعمان : فلله أبوك : فكيف بصرك بالأمور ؟ فقال : أنقض منها المفتول ؟ وأبرم منها المسحول وأحليها حتى تحول . ثم أنظر إلى ما يئول . وليس لها بصاحب من لم ينظر في العواقب . قال : قد أحلت وأحسنت . فأخبرني عن العجز الظاهر والفقر الحاضر قال أما الظاهر فالنساب الضعيف الحيلة المتنوع للحيلة . الذي يحوم حولها ويسمع قولها . إن غضبت ترضاها وإن رضيت تعداها . فذاك الذي لا كان ولا ولد النساء مثله .

---

١ - تعليق من أمالي ابن دريد ٢٢٤ - ٢٢٥ . ومعنى الصعقب : الطويل . والمسك الجلد أو خاص بالسخلة . والسحل الذي قوة واحدة . داء . عياء لا يبرأ منه . سمع فلانا شتمه ووقع فيه

وأما الفقر الحاضر فالذي لا تشبع نفسه ، وإن كان له قنطار من ذهب. قال فاحبرني عن السوءة السوءاء والداء العياء . قال أما السوءة السوءاء فالمرأة السليطة التي تعجب من غير عجب ، وتغضب من غير غضب ، فصاحبها لا ينعم باله ولا يحسن حاله ، إن كان ذا مال لم ينفعه ، وإن كان فقيراً عيره ، فأراح الله منها بعلها ، ولا متع بها أهلها

وأما الداء العياء فالجار جار البيت إن شهدك شافهك ، وإن غبت عنه سبعك ، وإن قاولته بهتك ، وإن سكت عنه ظلمك ، فقال له النعمان : أنت أنت ! فأحسن صلته وصلة أصحابه " .

وقال - عامر بن الظرب العدواني - [1]:

يا معشر عدوان : الخير ألوف عروف، وإنه لن يفارق صاحبه حتى يفارقه، وإني لم أصبح حكيماً حتى صاحبت الحكماء ، ولم أكن سيدكم حتى تعبدت لكم.

وقال - النعمان بن المنذر - :

من سأل فوق قدره استحق الحرمان ، ومن ألحف في المسألة استحق الرد ، والرفق يمن ، والحزن شؤم ، وخير الطاعة ما وافق الحاجة ، وخير العفو ما كان مع القدرة [2] .

وقال ايضا [3] :

الملك حلو الطعم مر النكاليف ، وكان يقول من حان حان . ولما وقع في حبس ابرويز وأشرف على التلف قال - من له يدان بغوائل الزمان ، ومن كلامه الملك عقيم أي لا أرحام بين الملوك وبين أحد .

١- امالي لأبي القالي ٢ / ١٧٩ .

٢- كتب الادباء لجعفر بن شمس الخلافة ص ١٨

٣- الاعجاز والإيجاز للثعالبي ص ٦١ ، ٦٢ ومعنى جأن ، الجأن السود اي من حدج وغنم يسود وجهه يوم النير وعوائل جمع عائلة وهي الداهية المهلكة

وقال عمرو بن هند [1] :

السلاح ثم الكفاح والمحاضرة، وكان يقول الملوك يشتمون بالأفعال لا بالأقوال ، ويتسفهون بالأيدي لا بالألسن .

وقال الحارث بن أبي شمر الغساني ملك عرب الشام [2] .

إذا التقى السفيان بطل الحيار ، وكان يقول من اغتر بكلام عدوه فهو أعدى عدو لنفسه ، ومن كلامه الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود .

وقال حسان بن تبع الحميري ، احد ملوك اليمن . [3] :

لا تثقن بالملك فإنه ملول ، ولا بالمرأة ، فإنها خؤون ، ولا بالدابة فإنها شرود ، ومن كلامه المعروف حصن النعمة من صروف الزمن ، وضروب المحن .

١- السق ص ٦٢
٢- السق ص ٦٣
٣- السق ص ٦٣

الشعر في العصر الأموي

إذا نظرنا إلى بيئة الشعر في العصر الأموي نجدها قد تغيرت وتطورت فهذه مكة والمدينة قد تحضرتا وكثر فيهما الترف والرقي ، والعبيد والمغنيات والمغنيين والإماء ، واكتملت لها كل أسباب المرح البريء الذي قوامه الذوق الراقي المهذب ، مما جعل أهلها يحزنون على فراقها كما حدث لأبي فطيفة الأموي حين نفاه ابن الزبير إلى دمشق أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثر مقارناً بينهما وبين دمشق ، ولا نقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طرد من فردوسه الأرضي يقول في مطلع قصيدة له :

القصر فالنخل فالجماء بينهما

أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

ويقول :

أقطع الليل كله باكتئاب

وزفير فما أكاد أنام

وكان للحروب الدامية والمعارك العنيفة ، والثورات المتلاحقة التي شهدها العصر الأموي أثر كبير في إذكاء روح الشعر ، وإشعال ناره إذ كان يجري على كل لسان ، واتخذه الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة ، وتأييداً لمذهبهم ، ودفاعاً عنه ، ورداً على الآخرين ونقضاً لهم .

وقد ظهرت أغراض جيدة في الشعر في هذا العصر على رأسها الغزل ، إذ كان في العصور السابقة يتخذ بداية ومقدمات للقصائد في مختلف أغراضها ، أما في العصر الأموي فقد أصبح فناً مستقلاً قائماً بذاته عند كثير من الشعراء في

مقدمتهم (عمر بن أبي ربيعة) إذا جعل ديوانه كله غزل وكذلك ظهر شعر النقائض على يد جرير والفرزدق والشعر التعليمي والرجز إلى غير ذلك من الأغراض التي جدت في هذا العصر .

وقد أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي تأثيراً واضحاً ، فنرى الغزل وقد تطهر وصفى مما كان عليه من قبل ، ونشأ الغزل العذري وكأنما أضفى الإسلام على المرأة وعلاقتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية أحاطها بهالة من الجلالة والوقار .كما نرى في شعر عمر بن أبي ربيعة وغيره .

أما شعر المديح فقد تحول إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح ، ووثق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عراه ، فنهض الشعراء يتحدثون عن تقواهم ، وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية ، وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ، تأثر فن الهجاء كذلك ، إذ أخذ الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ، فأطالوا في وصفهم بالفسوق والبغي والطغيان .

أما شعر الحماسة فقد كان أقوى في تأثره بالإسلام . إذ كان أكثره ينظم في الجهاد ، وحب الشهادة والتضحية في سبيل الله .

كما طبع الرثاء بطابع الإسلام ومبادئه من التسليم لله بالرضا بقضائه. فكل نفس ذائقة الموت ، وهو حسمٌ في رقاب العباد ، وعليهم أن يتدرعوا إزاءه بالصبر الجميل .

هذا من ناحية موضوعات الشعر وأغراضه . أما من حيث الألفاظ والأساليب والأوزان ، فلم يختلف بناء القصيدة في هذا العصر عنه في عصر الجاهلية وصدر الإسلام فقد اشتملت على عدة عناصر من الأغراض والمقاصد

فكان الشاعر يبدأ بالنسيب وذكر الديار ثم يفخر بنفسه وقومه ، ثم يقتضب الكلام إقتضاباً ، وينتقل إلى الغرض الذي يقصده من مدح أو هجاء على ما كان متبعاً في العصر الجاهلي وعند شعراء الإسلام .

ولم يخرج شعراء هذا العصر في جملة تصورهم وتخيلهم عما الفوه في العصرين السابقين وإن خالفوهم في ترتيب الفكر ، وتقريب المعاني إلى الأذهان والوجدان بما هذّب نفوسهم ، ورقق طباعهم ، من دراسة كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم ، بما نوع خيالهم ووسع معارفهم من مشاهد الحضارة وبدائع الصناعات .

كما لم يخرجوا جملة في تأليف ألفاظهم ، ونسج أساليبهم عن نظائرهم في الجاهلية والإسلام ولكنهم أثروا جزالة اللفظ ، وفخامته وحسن جرسه ، ومؤالفته لسابقه ولاحقه دون غرابة أو تنافر ، ورسا تعمد بعضهم الغريب ، ومداحلة بعض الكلام في بعض ليعجب علماء اللغة والنحو كالفرزدق ، كما أثروا جودة الأسلوب وروعة تأثيره ورقته وعزوبته في الغزل القصصي والنسيب والعفيف الدوي .

هذا عن القصيدة أما الرجز فقد كانت الغرابة من ألزم طبائعه . أما الأوزان والقوافي فلم يصبها تغيير يذكر عما كانت عليه من قبل ، ولكن شاع في هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها واستعمالها في جميع أغراض القصيدة ، حتى في افتتاحها بالنسيب والتخلص منه إلى المدح والزهد ونحو ذلك

جميل بثينة والحب العذري

" من بحر الطويل "

يقول جميل : -

ألا لَيْتَ أيامَ الصَّفاءِ جَديد
ودهرا تَولّي يا بثَيْنُ يعودُ
فنَغْنَى كما كُنَّا نكُونُ وأنتُمْ
صديق وإذا ما تبذّلين زَهيدُ
وَمَا أنسى ملأ شيْاء لا أنسى قَولَها
وقَدْ قربتَ نِضْوي أمِضْر تريد
ولا قَولَها : لولا العُيُونُ التي تَرى
أتَيتُكَ ، فاعذرْني فَدتك جُدودُ
خليليَّ ما أُخْفى مِنَ الوَجْدِ ظَاهِرٌ
ودَمْعِي بما أُخْفِي الغَداةَ شَهيدُ
ألا قَدْ أرَى واللهِ أنَّ رُبَّ عَبْرَةٍ
إذَا الدَّارُ شَطَّت بَيْنَنَا ستَزيدُ
إذا قُلتُ : ما بي يا بثينة قَاتلي
من الحُبِّ قَالتْ : ثَابِتٌ ويَزِيدُ
وإن قُلتُ رُدّى بعض عَقْلي أعِش بِه
مع النَّاسِ قالتْ : ذَاك منك بَعيدُ
فلا أنا مَرْدودٌ بما جِئتُ طالِباً
ولا حُبُّها فِيمَا يَبِيد يَبِيدُ

جَزتْكِ الجَوازي يا بُثَيْنُ مَلامَةً

إذا ما خليلٌ بَانَ وهُوَ حَمِيدُ

وقُلتُ لها : بيني وبَيْنَكِ فاعْلَمي

مِنَ اللهِ ميثاقٌ لَهُ وعُهُودُ

وقَدْ كَانَ حُبُّكُمْ طَرِيفاً وتَالِدا

وما الحُبُّ إلاّ طارِفٌ وتَليدُ

وإنَّ عُروضَ الوَصْلِ بَيْني وبينها

وإنْ سَهُلَتْه بالمُنَى لَصَعُودُ

فأفْنَيْتُ عَيْشِي بانْتِظَاري نَوَالَها

وأبليتُ ذَاكَ الدَّهرَ وهْوَ جَدِيدُ

٭٭٭٭٭٭

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً

بَوادِي القُرَى إنِّي إذاً لَسَعِيدُ

وهل أهْبِطَن أرْضاً تَظَلُّ رِياحُها

لَهَا بالثَّنَايَا الفَاوِيَاتُ وَئِيدُ

وهَلْ أَلْقَيَنْ سَعْدي من الدَّهر مُرَّةً

ومارَتْ من حبل الصَّفاء جَدِيدُ

وقد تَلْتَقي الأهواءُ من بَعْدِ بأسَةٍ

وقد تَطْلُبُ الحاجاتُ وهْيَ بَعِيدُ

وهل أزجُرَنْ حَرْفاً عَلاةً شَمْلَةً

بخَرقٍ تَبَارِيهَا سَوَاهِمُ سُودُ

على ظهر مرهوب كأنّ نشوزه
إذا جازَ هلاّكُ الطريق رقودُ
سَبَتْني بعَيْنَيْ جُؤذرٍ وسْطَ رَبْرَب
وصَدْرٍ كفَا ثُور اللُّجَيْن وَجيدُ
فَمنْ يُعْطَ في الدُّنيا قَرينا كَمِثْلِها
فذلك في عَيْشِ الحياةِ رَشيدُ
يموت الهوَى مِني إذا ما لَقيتُها
ويَحيَا إذا فَرقتُهَا فَيَعُودُ
يَقولون : جاهِدْ يا جميلُ بِغَزْوَةٍ
وأي جِهادٍ غَيْرَهُن أُريدُ ؟
لكُل حديثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ
وكلُّ قَتيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهيدُ
ومَنْ كَانَ في حُبِّي بُثَيْنَةَ يَمْتَرِي
فَبرقَاءُ ذِي ضَالٍ عَلَيَّ شَهِيدُ
ألم تَعْلَمي يا أمَّ ذِي الوَدْعِ أنَّني
أُضاحِكُ ذِكراكُمْ وأنْتِ صَلُودُ

دراسة القصيدة :

أ- التعريف بالشاعر :

هو أبو عمرو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي . وهو شاعر فصيح مقدَّم . جامع للشعر والرواية ، كان راوية هدبة بن خشرم ، وكان هدبة شاعراً راوية للحطيئة وكان الحطيئة شاعراً راوية لزهير وابنه كعب وكان كثير بن

عبد الرحمن (كثير عزة) راوية لجميل ، ومعنى ذلك أنه موصول الأواصر بمدرسة شعرية كان لها تاريخ كبير في الحرص على شرف المعنى وقوة الأسلوب وجزالته .

وبعد جميل من عشاق العرب ، فقد افتتن بحب بثينة ، وهام على وجهه حتى استقر في مصر تاركا بني عذرة في وادي القرى ، وقرب المدينة المنورة ، وظل مقيما في رحاب عبد العزيز بن مروان واليها فأكرمه وظل يمدحه حتى توفي عنده عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م ، وتناقل الناس أخباره وأشعاره العذرية الرقيقة في الشعر العذري الذي ابتكره مع شعراء اشتهروا بذلك في العصر الأموي ، منهم : قيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، وكثيرة عزة ، وتوبة الخفاجي . ويعده النقاد في البادية نظير عمر بن أبي ربيعة في الحاضرة وكلاهما حجازي خضعا لعوامل متقاربة .

أما صاحبة جميل فهي بثينة بنت حبا بن ثعلبة بن ربيعة ... حيث تلتقي مع جميل في النسب ، وكانت تكني أم عبد الملك لكن ماذا عن قصة هذين العاشقين ومأساتهما ؟

تشهد أخبار جميل وبثينة أن هذه المأساة بدأت حادث عابر ، تفجرت منه كل الروافد العاطفية حتى نهاية المدى ، فقد كان جميل في أول عهده بالعشق يهوى (أم الجسير) أخت بثينة الكبرى ، وذات يوم أقبل جميل بإبله حتى أوردها واديا ترعى كما تشاء ، وكان يقطن في طرف هذا الوادي قوم بثينة ، وتصادف في هذا اليوم أن خرجت الفتاة بصحبة حارة لها .. تردان الماء ، فمرتا على بعض من إبل جميل فنفرته ، وشق ذلك على الفتى فقام من ضجعته إلى بثينة تلك الفتاة الصغيرة التي حالها حمقاء فعنفها على سلوكها وسبها فردت عليه سبه بسب آخر وغالت فيه .

وأدرك جميل كم هي رفيقة تلك الفتاة . وكم هو ملح سنانيا . فشعر بسهم الحب يبعد إلى عمق قلبه . فأحب سنانيا . وعلق بها

أية عاطفة طاغية تلك التي تقيمها الإساءة والحرمان والسنان . وكان قلبه كان ينفتح في شوق حارف لعاطفة تملؤه

وينصرف جميل عن أم الجسير إلى أختها الجميلة بثينة وفي ذلك يقول

وأول مـــا قـــاد المـــودة بيننـــا

بوادي بغيض يـــا بثـــين ســـبابُ

وقلنا لهـــا قـــولا فجـــاءت بمثلـــه

لكـــل كـــلام يـــا بثـــين جـــوابُ

وبهذا تبدأ سطور قصة العشق بين جميل وبثينة . وتتتابع فصول القصة يوما بعد يوم حتى يدعى المؤرخون سبب جميل . ويذكروا فقط اسمه مقرونا بمحبوبته بثينة .

ويورد الأخبار أنه قد وقع لبثينة هوى جديد مع رجل اسمه حجية الهلالي فلم يزده ذلك إلا فتوناً إلى فتون . ووقعت الجفوة بينهما . وهي جفوة لم تشفه من جواه ؛ لأنه كان قد صار إلى حالة لا ينفع فيها دواء .

ولم يفلح أهله في إقناعه بوجوب الكف عن هوى امرأة ليس له من أطايبها غير النعيم بأوهام الخيال .

وقد اعترف جميل بأن من الحمق أن يبدو الرجل وحدا بامرأة تكثر أطايبها في زمام رجل سواه . ثم اعتذر بأنه لا يملك الصبر عن الهيام بتلك المرأة . لأنها ملكت عليه أقطار نهاه وقد أصله هواه فلم يعد يعرف مذاهب التحمل ولا مسالك العقل .

وتشهد أحجار جميل وبثينة بأنهما كانا عاشقين بريئين للعشق عالية أشرف من المتاع المبذول في دنيا الأهواء. ومن أجل هذا سحر جميل من العبارات التي وجهت إلى من يعشق امرأة لينا سهل. وهي عبارات عليلة تؤذي الرجل الندي الشديد الإباء.

ولم يقف بثينة الحب عند البوح بامرأة متزوجة لا تنال منها المطالب الجسية إلا عن طريق الإثم - وهي مستلك بمقته جميل كل المقت - فقد صدر أمر السلطان بإهدار دم جميل إن فكر في زيارة بثينة. فرحل إلى اليمن مرة. وإلى الشام مرة. وطالت به الحيرة في تلمس أسباب الخلاص من هواه. فلم يجد أفضل من الرحيل إلى مصر. ولم تطل أيامه بمصر. فقد أحد النور يحنو واحس أن الستار الأخير سوف يسدل عليه. فدعا صديقا له وأوصاه أنه إذا مات عليه أن يأخذ جثته في حقيبته ويذهب إلى قوم بني الأحب من عذرة - وهم قوم بثينة وأن يضع بجنبه الأبيات

بكر النعي - وما كنى - بجميل

وثوى بمصر ثواء غير قفول

بكر النعي بفارس ذي همة

بطل إذا حمل اللواء مديل

ولقد أجر الذيل في وادي القرى

نشوان بين مزارع ونخيل

قومي ببثينة فاندبي بعويل

وابكي خليلك دون كل خليل

ففعل الرجل ما أوصاه به حميل . فما كاد ينقضي من إلقاء هذه الأبيات حتى برزت إليه بثينة يتبعها نسوة قد بزنهن علوا وبرزن أمامهن كأنها بدر قد برز في حنة فقالت يا هذا لئن كنت صادقا لقد قتلتني . ولئن كنت كاذبا لقد فضحتني فقال الرجل والله ما أنا إلا صادق وأنشأ حلة حميل فلما رأتها بثينة صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت ووقعت معتيا عليها . فلم ير يوم كان أكثر بكاء منه

وهكذا تعلق الصفحة الأخيرة في هذه المأساة ، على صورة عاشقين كتب عليهما قدرهما أن يعيشا على وجد ومرارة وشوق حارف ، يموت العاشق بعيدا عن وطنه وتحيى المعشوقة في كمد وحزن ووحشة تحتر ذكرياتها القدسة حتى طوقتها رمال عدرة بعد موت حبيبها بقليل ليلتقيا في جنة العاشقين التي لا تعرف الفراق مهما بعدت بينهما المسافة

ويقتضينا المقام أن نقول إنه إذا كانت مأساة قيس ولبنى - على شهرتها الواسعة - أشد هذه المآسي اختلاطا واضطرابا في أخبارها الكثيرة وما دخلها من وضع الرواة وتزيد القصاص وأوهام السمار ، فإن قصة حميل وبثينة لم ينلها هذا الاختلاط ولا تختلف مصادرهما كثيرا . ومن ثم فهي أقرب هذه المآسي للواقع ؛ حيث نحن من عبث الرواة والقصاص والسمار .أقرب أقر

غرض القصيدة :

قصة حميل في الشعر والحب العذري نعد من النوادر في تاريخ الأدب العربي . فهو من حيث الشعر رجل قوي الأسر محكم الأسلوب . وقد استعد للشعر كل الاستعداد

أما من حيث الحب فقد ذاهب له جميل مواهب تجعل قصته فيه على جانب عظيم من الحادثية . فقد كان جميل فتى شريف النفس . شجاع القلب يحامه العدو ويرحوه الصديق

ولم يكن العشق والحب العذري عنده فما من اللهو أو العبث . وإنما كان محنة أصيب بها قلبه الحزين . وقد طال بلاؤه بمحنة العشق ولم ينقذه غير الموت وهو مغترب وحيد .

ولما كان جميل يعبداً طريد الحب . فقد عاش على الذكرى والأمل في لقاء المحبوبة وتحدد أيام الصفاء والحب . وهذه القصيدة إحدى النفثات التي أخرجها جميل من خبايا نفسه ومن بين ضلوعه . وسوداء قلبه ليعبر بها عن حبه وإخلاصه واشتياقه لمحبوبته بثينة . وقد قال هذه القصيدة وهو مرتحل إلى مصر

٢ ـ تحليل القصيدة

إذا ما أنعمنا في القصيدة كلها نجد أنها تشتمل على عناصر وأفكار عدة . أثرت قصد الشاعر وكشف اللثام عن تجربته التي اصطرمت بين جوانحه وعاني منها ما عاني . فراح يصدح بهذه القصيدة بتلك الأجزاء الفنية التي تعبر عن شعوره وإحساسه وصدق عاطفته. وأول هذه العناصر

الحديث عن الماضي السعيد :

الفكرة في الأبيات التالية :

١. الا ليت أيام الصفاء جديدُ
ودهرا تولى بالتين يعود

٢. فنعمى كما كنا نكون وأنتم
صديق وإذا ما تبذلين زهيد

٣. وما أنس ملأشياء لا أنس قولها
وقد قربت نضوى أمصر تريد ؟

٤. ولا قولها: لوى العيون التي ترى
أتيتك ؛ فاعذرني ، فدتك جدود

٥. خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر
ودمعي بما أخفي الغداة شهيدُ

٦. ألا قد أرى والله إن ربّ عبرة
إذا الدار شطت بيننا ستزيد

التفسير اللغوي :

١. **جديد** : تحدد الماضي ورجوعه . **دهرا** : الفترة من الرمن .
تولى : ذهب وابتعد **وصار** : في حكم الماضي.

٢. **بتين** : بتينة وحذف الحرف الأخير من الاسم يسمى ترخيما .

٣. **نغني** : نسعد بالإقامة . **نكون** : نوجد.

٤. **ما تبذلين** : ما تبذلين من الوصل والوداد . **زهيد** : قليل

٥. **ملاشياء** : من الأشياء .

٦. **النضو**: الضعيف المهزول من الحيوان يريد ناقته .

يقول مهما أنس من شيء . فلا أنس قولها وقد قربت من ناقتي أتريد مصر

٧. **الجدود** : جمع جد

٨. **بالفتح** : وهو أبو الأب تدعو له بالسلامة وتفتد به بالأهل

٩ **الوجد** : الحب الشديد **الغداة** : ما بين الفجر وطلوع الشمس

شهيد : ظاهر

١٠. **العبرة** : الدمعة أو الحزن من غير بكاء

شطت : بعدت . أي سيكثر بكائي إذا افترقنا

ستزيد : خبر عبرة والجملة خبر أن المحذوفة .

شرح وتعليق :

يبدأ الشاعر قصيدته بالحديث والتغني بأيام الصفاء الخالية والذكريات الحلوة الجميلة التي قضاها في رحاب محبوبته أو بالقرب منها فليتها ترجع كما كانت لترفرف عليهما السعادة . وتهدأ النفس وتقر العين ولو بالقليل من الوصل والوداد . فما زالت كلماتها عالقة بذهنه ساعة الوداع وهو مرتحل إلى مصر لا يستطيع نسيانها وقلبه . ذلك لأن نفسه كانت تودعه بحرارة وشوق وفي صوت هامس تقول له أتنصرف عن لتنعي مصر ؟ تقولها وهي تحنى التلاقي ويصدها عنه عيون الحساد ونظرات العذال . ولا تملك لا الاعتذار عن اللقاء . والدعاء له والتحية من أجله بالأهل والأحباب

ويسير الشاعر بعد أن ودع محبوبته . متقطع القلب يعصف به الشوق . ويمزقه الحب ويتلظى بنار الفراق . ويذوب من كثرة البكاء والحزن على فراق

محبوبته ، وتبادله محبوبته الشعور نفسه إذا ما بعدت بينهما الشقة والفراق ، فيزداد في قلبها الحب ويشتد مع أنها تتأنى عليه ، وتخيب آماله ، فلا هي تمكنه من الوصال ، ولا هو يستطيع نسيانها

تلك ساعة من ساعات الماضي السعيد ، يذكرها ليخفف عن قلبه المتيم المكلوم وطأة الفراق ونار البعد ، واستعادة الذكريات أمر واقع لكل إنسان ، لكنه في حالة المحبين أكثر وأشمل ، فالحب يعيش على الذكرى إذا ما حال البين بينه وبين من يحب ، كما الحال عند جميل .

وصف ما في نفسه من حب وشوق :

استطاع الشاعر أن يعبر عن هذا الإحساس وذلك الشعور في الأبيات التالية -

٧. إذا قلت:ما بي يا بثينة قاتلي
من الحب: قالت: ثابت ويزيد

٨.وإن قلت:ردي بعض عقلي أعش به
مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد

٩. فلا أنا مردود بما جئت طالبا
ولا حبها فيما يبيد يبيد

١٠. جزتك الجوازي يا بثين ملامة
إذا ما خليل بان وهو حميد

١١. وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي
من الله ميثاق له وعهود

١٢. وقد كان حبكم طريفا وتالدا
وما الحب إلا طارف وتليد

١٣. وإن عروض الوصل بيني وبينهما

وإن سهلته بالمني لصعود

١٤. فأفنيت عيشي بانتظاري نوالها

وأليت ذاك الدهر وهو جديد

التفسير اللغوي :

٧. **اي إذا قلت لها إن الحب سيقتلني قالت :** إنه باق وسيزيد

وهذا معنى قوله : ثابت ويزيد .

٨. **ردي بعض عقلي :** صوابي ورشدي . والمراد الوصال الذي به يحيا بين الناس

٩. **فلا انا مردود :** أي لم أنل ما طلبت من بعض عقلي .

يبيد : يفني وينتهي .

١٠ **جزتك :** عاقبتك **الجوازي :** جمع جازية وهي المكافئة المنصفة

والمعنى : أنه إذا حسوتي الأحبة بالتنائه عليهم وقت الفراق فليس لك في نفسي إلا العتب واللوم

والبيت : في الأصل جملة دعائية .

١١. **الطريف :** الجديد وضده التليد .

١٢. **العروض :** الطريق في عرض الجبل .

صعود : مرتفع أو الطريق الشاق .

والمعنى : أن الوصل صعب المنال وإن سهلته بالوعود .

١٣ **نوالها :** قربها ووصلها

ابليت الدهر : دهاب العمر بغير وصل .

شرح وتعليق :

بعد أن وقف الشاعر طارقاً أبواب الذكريات والأيام الحلوة الجميلة ، ليخفف وطأة الحب عن قلبه المتيم ، ويسري عن نفسه المملوءة شوقاً وحنيناً بعد ذلك يحدثنا الشاعر (جميل) عما في نفسه من حب وشوق ، ويورد لنا حواراً بينه وبين محبوبته نسجه من خياله السامق ، ليؤنس وحدته وغربته ، ويطفئ نار الشوق المتأججة بين جوانحه .

وهو في هذا الحوار الملتهب ، يحاول إظهار ما يدور بين جنباته من حب قاتل يؤرقه ليلا ونهاراً ، فلا يكاد يحس بطعم الحياة ولا لذة العيش ما دام بعيدا عن محبوبته لا ينال منها وصلا ولا قربا .

وترتفع نبرة الشاعر ، فيصف ما أصابه من جراء هذا الحب ، فنراه وقد ذهب عقله بسبب البعد والفراق ، فجاء يطلب الوصل علّه يرجع إلى رشده وصوابه ويعش بين الناس عاقلا رزيناً سعيداً هادئ النفس ساكن اللب.

لكن هيهات هيهات وقد بعدت الشقة بينه وبين بثينة ، فلم ينل منها ما أراد من وصل وقرب ينعم به ، ولا انشغل قلبه عنها وذهب حبها منه فيستريح ، بل ظل مشغول القلب ، شارد اللب ، ولا يملك إلا أن يلوم محبوبته التي أبت أن تمد إليه يد القرب والوصل ، ويذكرها بأنهما قد أخذا على نفسيهما العهد والميثاق أمام الله على اللقاء والمودة والمحبة .

ويرجع الشاعر إلى الحقيقة الماثلة أنه مهما أعطته محبوبته من وعود وأمنيات بالوصل والقرب إلا أن ذلك صعب محال ؛ ذلك لأنه قد حيل بينها وبين محبوبها ، ولا تملك من أمر نفسها إلا هذا القلب النابض بالحب ، لذا فقد أفنى الشاعر دهره في انتظار وعدها المزعوم وقضى زهرة عمره في طلب نوالها لكنه عاد بحفي حنين .

الأمل في لقاء بثينة :

يصور الشاعر هذا العنصر قائلا :

١٥. ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
وادي القرى إني إذا لسعيد

١٦. وهل أهبطن أرضا تظل رياحها
لها بالثنايا الفاويات ونيد

١٧. وهل ألقين سعدي من الدهر مرة
ومارثٌ من حبل الصفاء جديد

١٨. وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسة
وقد تطلب الحاجات وهي بعيد

١٩. وهل أزجُرن حرفا علاة شملة
بخرق تباريها سواهم سود

٢٠. على ظهر مرهوب كأن نشوزه
إذا جاز هالك الطريق رقود

٢١. سبتني بعيني حوذر وسط ربرب
وصدر كفا ثور اللحيين وجيد

٢٢. فمن يعط في الدنيا قرينا كشكلها
فذلك في عيش الحياة رشيد

التفسير اللغوي :

١٥. **ليت شعري** : ليتني أعلم أو أشعر

وادي القرى : بلادهما شمالي المدينة بالحجاز

١٦. **الثنايا** : جمع ثنية وهي طريق ملتو في الجبل أو هي الجبل نفسه

القاويات : جمع قاوية بمعنى الخالية

وئيد : صوت شديد عاصف .

١٧. **سعدى** : يكني بها عن بتينة . **رث** : بلى وتقطع .

ما : مبتدأ خبره جديد .

١٩. **أزم الناقة** : أصبح بها لتسرع

الحرف : الناقة الحامرة أو المهزولة أو العظيمة

العلاة : الناقة الطويلة . **والشملة** : السريعة

الحرق : القفر والأرض الواسعة تتحرق فيها الرياح .

تباريحا : تسابقها

سواهم : جمع ساهمة وهي الناقة الصامرة

٢٠. **مرهوب** : طريق مخوف

نشوز : جمع نشز وهو المكان المرتفع .

هالك الطريق : الذي ضلوه **رقود** : نيام وهو جبر كأن

٢١. **سبتني** : أسرتي وسحتني . **الجؤذر** : ولد البقرة الوحشية

الربرب : القطيع من بقر الوحش .

الخاثور : الحفنة وهي الإناء الواسع . **اللجين** : الفضة .

الجيد : العنق وهو بالرفع على أنه مبتدأ خبره (لها) محذوف

٢٢. **القرين** : الصاحب والزوج **رشيد** : موفق .

شرح وتعليق :

استطاع الشاعر (جميل) أن يصور ما في داخله من شوق ومحبة لفتيته وما يعانيه من الهجر والصد وضياع الأمل في اللقاء ، مما جعله يحلم ويتمنى بأسلوب المتشائق المتلهف - النسب لبلة واحدة في أرض محبوبته ليأنس بها ويسعد بالقرب منها - وإن كان لا يراها بتلك الأرض (وادي القرى) التي شهدت أول لدور للحب العذري بينهما ، فما أحلاه من مكان حال إلا منهما ، تعرف الرياح فيه أعذب ألحان الهوى العذري ، فيتم الوصل ويتجدد الحب ، ولم لا وقد يتحقق هذا الحلم وتلتقي الأهواء بعد اليأس ، وهذا يجعله يقطع الفيافي والقفار من أجل الوصول إلى تحقيق هذا الأمل المنشود ، والوصول إلى هذه الحبيبة التي سحرته بجمالها أخذته بعيونها الجذابة ، وقوامها المعتدل الرائع ، وكل ما يتمناه أن يسعده الدهر بليلة في هذا الوادي الذي يقطن فيه هذا الجمال الأخاذ ، ويكتمل سعادته ويرتوي ظمأ قلبه بمجرد المبيت دون أن يلتقي بها أو يراها ، فهي في نظره نموذج صالح للمرأة التي جمعت المحاسن كلها في نسبها وخلقها وجمالها ودينها ، ومن يظفر بها فقد فاز بالخير كله وعاش في الحياة سعيداً موفقاً

عودة إلى وصف حبه العذري وجهاوه فيه :

يقول الشاعر مصورا هذا الحب :

٢٣. يموت الهوى مني مـا لقيتهـا
ويحيـا إذا فارقتهـا فيعـود

٢٤. يقولون : جاهد يا جميل بغزوة
وأي جهـاد غيـرهن أريـد ؟

٢٥. لكـل حـديث بيـنهن بشاشـة
وكـل قتيـل بيـنهم شـهيد

٢٦. ومن كان في حي بثينة يمتري
فبرقـاء ذي ضـال علـى شـهيد

٢٧. ألم تعلمي يا أم ذي الودع أنني
أضاحك ذكـراكم وأنـت صـلود

التفسير اللغوي :

٢٣. **يموت الهوى مني** : يضعف الحب **فارقتها** : ابتعد عنها

٢٤. **جاهد بغزوة** : أخرج للجهاد في سبيل الله كي تنسى حبها

٢٥. **بشاشة** : بهجة وسرور.

شهيد : المبت لغاية نبيلة كالمجاهد في سبيل الله تعالى.

٢٦. **يمتري** : يشك.

البرقاء : أرض عليظة ذات حجارة ورمل وطين أو كل شيء فيه سواد وبياض وبرقاء ذي ضال إحدى برق بلاد العرب يقصد من مواقفه فيها شاهدا على حبه الشديد.

٢٧. **ذو الودع** : طفلها يعلق عليه الودع وقاية. وهو محار صغير أبيض معروف. **صلود** : بخيلة

شرح وتعليق :

علم الشاعر أنه لا أمل في لقاء محبوبته والاتصال بها . فراح يصف حاله وما ألم به من وجد وصبابة . واستعمل الحب بين جوانحه . ولا يطفئ هذه النار المتأججة الا لقاء محبوبته . ثم تعود لتشتعل مرة ثانية بعد فراقها . فهو لا يستطيع بسيار (بثينة) حتى لو خرج للجهاد كما نصحه إخوانه وأهله . حتى ينسى هذا الحب الجارف ويرى أن الجهاد الأكبر في مجاهدة هذا الحب والصبر عليه . أو يموت شهيداً في سبيله .

ثم ينتقل الشاعر إلى بيان صدقه وإخلاصه في حبه (لبثينة) فيخاطب من يشك في هذا الحب وذلك الإخلاص بأن يذهب إلى وادي القرى ويسأله عن مرافقه مع بثينة في هذا الوادي . كي يكون دليلاً على حبه وإخلاصه ونقائه في حب بثينة في بُعدها وقربها ؛ ففي قربها يهدأ القلب وتصفو الروح وفي بعدها وهجرها يعتصر الشاعر يخاطب الذكرى الجميلة ويصاحكها . حتى لو تجلت عليه باللقاء . فهو يعيش على الذكرى الجميلة . والأيام الحلوة الخالية

تحليل ونقد :

تناولنا في الصفحات السابقة شرح بعض من شعر جميل في الحب العذري . ورأينا كيف تلاءمت المشاعر والخواطر مع موضوع واحد . وتراسلت المعاني وتتابعت الأفكار من أول بيت إلى آخر القصيدة . لتتلاقى في مجرى واحد يصب في موضوع واحد هو الحب العذري

وإذا ألقينا نظرة على هذا الحب . وحقيقته نرى أن الحب له صورتان .

الأولى : حب حسي يقف فيه الرجل بالمرأة من جنب هي أدنى تحقق له المتعة واللهو وإرضاء الحواس . وقتية تدفعه إلى طلب ... من الآخر في عينيه لأنه يرى فيه الوسيلة لتحقيق متعته ولهوه وإرضاء حواسه . وعلى ذلك فالمرأة في هذه الصورة ليست غاية للحب ولكنها وسيلة إليه . ولذلك فالمحب بهذا اللون لا يقف حبه عند واحدة بعينها يثبت لها قلبه وحبه ومشاعره وإخلاصه ووفاءه . ولكنه ينتقل من واحدة إلى أخرى كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة طلبا للرحيق والعطر الفواح . لذا لا تراه يقنع بالشرب من كأس واحدة ، وهو لا يطلب الكأس إلا أن تروي ظمأة . وبذل صداه . وتتلفئ نار لوعته . فالمرأة نفسها لا تعنيه إلا بقدر ما ينال منها من متعة .

والثانية : حب روحي طاهر عفيف يصدر عن مشاعر راقية متدفقة وعاطفة نبيلة صادقة وصبابة عنيفة مبرحة . ويقوم على الإخلاص الشديد ويميل إلى المبالغة غير المقبولة أحيانا في التفاني والضراعة . ليعبر عن فطرة سليمة ونزعة إنسانية مهذبة

كما أنه حب يتعلق فيه العاشق بمحبوبة واحدة . يرى فيها مثله الأعلى الذي يحقق له المتعة الروحية . ورضا النفس . واستقرار العاطفة . وهو استقرار يجعل متنته بواحدة تقف عندها آماله . وتتحقق فيها كل أمانيه . فالمرأة عنده هي هدفه الذي يطلبه . والغاية التي يسعى إليها . والأمل الذي يرتجيه . والمعبود الذي يقضي عمره في محراب حبه . ويوقد له الشموع . ويحرق البخور . مثله مثل الفراشة التي تتهافت على النور ولا تزال تحوم حوله حتى تحترق بناره. فالمحبوبة عنده هي الكأس التي يقضي حياته طامناً إليها لا يعدوها إلى غيرها. ولا يتحاورها

إلى سواها، لأنه لا يطلب الريّ في أي كأس، ولكنه يطلبه في كأس معينة هي تلك التي تعجنه وترضيه [1].

والحقيقة التي لا جدال فيها أن العرب قديماً عرفوا شاعر الصورتين من الحب، (العذري والحسي الفاحش) فكل من يقرأ الغزل الجاهلي وينتبع الحياة الاجتماعية في هذا العصر يستطيع أن يتبين الاتجاهين الأساسيين من اتجاهات الحب.

فإلى جانب امرئ القيس والأعشى وأضرابهما ممن يمثلون الاتجاه الحسي في الحب، عرف المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه طائفة من الشعراء يمثلون الاتجاه العذري العفيف، وأطلق عليهم لقب (المتيمين) تمييزاً لهم عن سائر الشعراء وربطوا بين كل متيم وصاحبته كما كان الحال عند العذريين في العصر الأموي فالرقش الأكبر وأسماء والرقش الأصغر وفاطمة وعبد الله بن العجلان وهند وقيس بن الحدادية، ونعم وعبد الله بن علقمة وحبيشة ومالك بن الصمصامة وحنوب، وعمرو بن كعب وعقيلة، وعنترة وعبلة.

وهذا يعطينا إشارة إلى أن الحب العذري لم يأتي من فراغ، أو لم يكن نتاجاً أموياً خالصاً وإنما كانت له جذوره الممتدة في العصر الجاهلي، لكنه لم تتحدد معالمه، ولم تكتمل صورته وعناصره الفنية والخلقية، ولم يظهر في قصائد مستقلة تحققت فيها الوحدة الموضوعية، إلا في العصر الأموي، بعد أن استقام الأمر لبني أمية واستقرت لهم دولتهم الجديدة ومع هذا الاستقرار تميزت صورة الحب العفيف لسمات معينة واتخذت لها طابعاً خاصاً اكتسبت اسم جديداً عرف باسم " الحب العذري " نسبة إلى قبيلة بني عذرة، وفي أرجاء البادية العربية

١- انظر الحب المثالي عند العرب د / يوسف خليف

ظلير عشاق عدوا النماذج الصحيحة لهذا الحب والمثل العليا له بكل سماته المعبرة، وطوابعه الخاصة . فأطلق عليهم أسم العذريين نسبة إلى هذا اللون من الحب

كما أن الإسلام كان سببا في أن يصبح هذا اللون من الحب اللون الأول في لوحة الحياة الدنيوية الإسلامية . فالإسلام هو الذي حال بين عرب البادية وبين ألوان الحب الأخرى الحسية . فلم يجدوا لعواطفهم متنفسا إلا في هذا الحب العفيف الذي لا يحرمه الإسلام ولا ينكره

والقصيدة التي بين أيدينا لشاعر من أكبر الشعراء العذريين الذين أبدعوا في هذا المضمار، وعبروا تعبيرا صادقا للفطرة الإنسانية الصافية . استجابة فعلية لتلك الجذبة الدينية . وتيارا روحيا وإسلاميا وخلقيا بين الصراعات البدوية والمغالبة والإسراف المادي والترفيهي واللاهي العابث. فكان الحب العفيف وأصحابه الوجه الأخر للصراع السياسي الدائر بين شعراء الأحزاب السياسية من شيعة وخوارج وزبيريين والحرب الأموي الحاكم، فترفع بعض الشعراء عن الخوض في هذه التيارات السياسية ليتغنوا بالحب الطاهر العفيف، مجردا عن الأهواء والشهوات والملذات والإسراف المادي ؛ للتعبير عن الخلق السامي، والروحية الصافية المهذبة [1] .

١- نصر الأدب الإسلامي بين الفطرة والتعبير ج٢ / ٥٠٥ / على صبح

القيم الموضوعية والشكلية :

أولاً : من حيث الموضوع

أشرنا فيما سبق إلى أن موضوع القصيدة هو الحب العذري الذي ساع في العصر الأموي واشتهر به كثير من الشعراء أمثال جميل . الذي استطاع ان يخاطب قلوب المحبين بأشعار مطبوعة بأريج من الحب الصادق النبيل . وليهيب من العواطف الحياشة والأحاسيس المتأججة التي تدوب لها حشاشات القلوب . كما جاء مطبوعا بحملة من القيم العذرية التي تتسم بالعفة والطهارة وتتعالى فيها صبحات الروح وحسن الخصال على نداء الغريزه ومطالب الجسد . وما ذلك كله إلا من ينابيع الفروسية النبيلة التي كانت تتحلى بها القبائل العربية قديماً وبخاصة قبيلة (عذرة) التي نسب إليها هذا الحب.

والقصيدة التي بين أيدينا تعد مرآة صافية لحياة الشاعر ، ودليلاً قوياً على صدق فنه ورقته لما تحسدت فيها من ملامح الحب العفيف الطاهر وتوارت فيها القيم الإسلامية الراقية ، ودحرت بها من قيم عصره ورمانه . فكانت بذلك نموذجا راقيا تتحلى فيه عذرية الشاعر ومقومات فنه فما مظاهر ذلك كله ؟

١- الملامح العذرية :

استطلعنا فيما سبق أن نضع أيدينا على مفهوم الحب العذري . ولكي يكون الحب أو الغزل بهذه الصفة لا بد لها من ملامح تظهر في عمل الشاعر وتجربته التي يعانيها ويصوغها شعراً . وتجسد القيم النبيلة في الغزل مثل العفة ووحدة المحبوبة، والحرمان من وصلها ، والإخلاص لها والوفاء بعهدها . والأمل في وصلها ولقائها ، وكلها سمات عذرية اكتنفت علاقة المحبة المتبادلة بين جميل وبثينة .

وبخاصة إذا عرفنا أنه شاعر عربي أصيل تربى على أخلاق الفروسية العربية الأصيلة وتحلى بأخلاق الفوارس النبلاء من الشجاعة والكرم والمروءة والاعتداد بالنفس والذود عن المرأة وحمياتها . وكلها صفات خلقية اكتسبها شاعرنا (جميل) من منابعها الأصيلة من البيئة العربية

ومن ثم وجدت عاطفة المحبة والغزل العذري متاحاً طيباً وتربة خصبة لنموه وازدهاره وتعدد ملامحه وصوره في القصيدة

فمن أقواله التي تتجسد فيها الملامح العذرية وتبرهن على حبه الذي يكنه بين جوانحه

خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر

ودمعي بما أخفي الغداة شهيد

وقسمه على صدق حبه في القرب منها أو البعد عنها وازدياد عذابه وحزنه إذا فارقها

ألا قد أرى والله أن رب عبرة

إذا الدار شطت بيننا ستزيد

وقوله يبرهن به على تأله وشدة وحده وصبابته . وتأجج الحب بين جوانحه

إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي

من الحب قالت : ثابت ويزيد

ومن الملامح العذرية أيضاً قوله يبرهن به على شدة حرمانه ولوعته لفراقها وصعوبة وصلها

وإنْ عروض الوصل بيني وبينها

وإن سهلته المني لصعود

وقوله يبرهن به على أمله الدائم في لقائها ومعاودة وصلها من حديد والتنعم بالصفاء والهناءة كما كان في سالف عهده . ويبرهن به كذلك على إخلاصه في حبه لها وعدم العدول عنه الى غيرها

ألا ليت أيام الصفاء حديد

ودهراً تولى يا بثين يعود

*****

فأفنيت عمري بانتظاري لوالها

وأبليت ذاك الدهر وهو جديد

*****

وهل ألقيت سعدي من الدهر مرة

ومارث من حبل الصفاء حديد

وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسة

وقد تطلب الحاجات وهي بعيد

ومن الملامح العذرية في القصيدة قوله يبرهن به على صدق حبه ومجاهدة نفسه فيه ورده على المشككين في هذا الحب وذاك الطهر

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها

ويحيا إذا فارقتها فيعود

يقولون جاهد يا جميل بعروة

وأي جهاد غيرها أريد

*****

ومن كان في حبي بثينة يمتري

فنرقاء ذي ضال علىّ شهيد

ومن أقواله الشاهدة على عدريته والاعتداد بمحبوبته وتمجيدها وإثباته أنها خير قرين

فمن يعط في الدنيا قرينا كمثلها

فذلك في عيش الحياة رشيد

وهكذا توافرت في القصيدة ملامح عذرية الشاعر وعفته وطهارته التي تشهد على اخلاصه في حبه ونقائه ونهالكه في صبابته . وهذا لا يتنافى مع شهامة العربي ورجولته وفروسيته . فكما كان يعتد برجولته وفتوته وشجاعته في ميدان الحرب والقتال . كان يعتد كذلك بخضوعه واستسلامه لسلطان المحبة والهوى والغرام . وقد استحسن النقاد هذا الأمر وبخاصة في ميدان الغزل العذري ومن ذلك قول ابن قدامه مشيراً إلى ذلك " يجب أن يكون النسيب الذي يتم به العرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة . وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة . ومن الخشوع والدلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة . وأن يكون حماع الأمر فيه من الإباء والعزة . وأن يكون حماع الأمر فيه ما صاد التحافظ والعزيمة، ووافق الانحلال والرخاوة. فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به العرض " [1] .

كما ينبغي الإشارة إلى أمر هام وهو ورود بعض الأوصاف الحسية للمرأة في القصيدة وهذا لا يتنافى مع عفة الشاعر وطهارته وعذريته في حبه. لكنها صورة تتفق مع إجلالها وقدسيتها ومنزلتها في قلبه . كما أنها دليل على تعلقه بها فهو قد تعلق بجمال روحها وحواسها

---

[1] نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٣٤

ومن ذلك قوله

سبتني بعيني جؤذر وسط ربرب

وصدر كفاثور اللحيين وجيد

فهذه أوصاف حسية . ولكن الشاعر لا يقصدها لذاتها ، وإنما لما تركته في نفسه من أثر طيب جعله يعلق بها حسنا وروحا . دون أن يعرضها في صورة من الفحش والابتذال . ومن ثم يبدي لنا وصفا رائعا لجمال محبوبته - كما يراها في عينيه - في صورة تجمع بين جمال الروح والجسد

وهذا ليس معناه أن يتمادى الشاعر العذري في وصف محبوبته وصفا حسيا مبتذلاً ، وإلا لا يتسم بالعذرية والعفاف.

٣- القيم الخلقية والدينية :

كان للإسلام وتعاليمه السمحة الراقية الأثر الكبير في تأصيل الحب العفيف وانتشاره ، ذلك لأن الإسلام دعا إلى ترسيخ القيم السامية ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، ولما كان الحب العذري أساسه التعاطف الروحي والوجداني ، فقد أقره الإسلام ، وارتاد الشعراء تمسكا بتعاليم الإسلام ، ووجهوا عواطفهم وأحاسيسهم نحو مطلة الإسلام وتعاليمه السمحة . كما جاءت أشعارهم في هذا الاتجاه مشتملة على كثير من القيم الخلقية والدينية ، حتى صار هذا منهجا في النسيب والغزل ، سار عليه شعراء الحب والنسيب في الشعر العربي والإسلامي في كل العصور الأدبية . حتى يرى بعض النقاد أن الحب الإلهي انطلق من هذا الغزل .

واصبحت صوره وأعلامه ومعالمه رموزا ومصطلحات وصورا في الأدب الصوفي بعد ذلك عند سلطان العاشقين ابن الفارض وغيره [1].

وقد اشتملت القصيدة على كثير من الفتح الحلقية والدبيبة منها

التعاطف الروحي المجرد من الشهوات والملذات . ذلك لأنه لا يبغي من وراءه المتعة الحسية والجسدية الفانية بعناء وقتيا ، بل يرمي الحب إلى الصفاء الروحي والتعاطف الوجداني ، الذي يملأ النفس اطمئنانا ، ويتسع جوا ملبنا بالطهر والعفاف وقد تجسد هذا المبدأ السامي وتلك القيمة الروحية العالية ، في قول الشاعر جميل .

ألا ليت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بثين يعود

فهو هنا لا يطلب إلا ذلك الصفاء الروحي المجرد من الشهوات والملذات الفانية . وهذا مبدأ سام يرفع من علاقة الرجل بالمرأة ، كي لا تكون قائمة على النفع المادي الفاني

التعلق بالذكريات الجميلة ، وأحاديث النجوى الطاهرة ، ذلك أنها خلق اسلامي يدل على الوفاء وعدم الجحود والعرفان بالجميل ومن ذلك قوله

وما أنس ملأشياء لا أنس قولها

وقد قربت نضوي أمصر تريد ؟

ولا قولها : لولا العيون التي ترى

أتيتك فاعذرني فدتك جدود

١- عصر الأدب الإسلامي ج٢ / ٥٥ د / علي صبح

كما نلحظ في البيت الثاني خلقاً سامياً هو خلق الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيمان بالله عز وجل . والحياء والإيمان مقترنان إذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر . ومن لم يستح من الناس لا يستحي من الله عز وجل

الدموع والعبرات دليل على رقة القلب . وهي رحمة يتنفس بها الإنسان عن نفسه ويذهب بها بعضا من نار الوجد . ويتصبر بها على بلائه . ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة . حيث بكى النبي ﷺ ولده إبراهيم ، فتعجب بعض الصحابة من بكائه فرد عليهم ﷺ قائلاً " إن العين لتدمع . وإن القلب ليحزن . وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون وإنها رحمة ولا نقول إلا ما يرضي ربنا " .

وقد تجسد هذا الخلق الرفيع وتلك القيمة الروحية في قول (جميل) معبراً عن تأله لفراق محبوبته وانهمار الدموع من عينيه

خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر

ودمعي بما أخفي الغداة شهيد

ألا قد أرى والله أن ربَّ عبرة

إذا الدار شطت بيننا ستزيد

من القيم الخلقية النبيلة التي اشتملت عليها القصيدة . المشاركة الوجدانية في المشاعر والأحاسيس الإنسانية الفياضة بالحب . وهذه قيمة إسلامية فإذا تأدرك إنسان مشاعر الحب والود لزم أن تتأدله هذا الشعور ويصرح له بذلك . وبخاصة إذا كان حبا مبرءاً من الغرض الرائل . والمجرد عن الشهوة الفانية . وفي الحديث النبوي الشريف

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه "

ومن ثم كان تبادل المشاعر الوجدانية من القيم الإسلامية التي حث عليها الإسلام ورغب فيها . ونفر من التقاطع والتدابر والحقد والحسد والبغض . وتمثل هذا المبدأ السامي في قول جميل :

إذا قلتُ : ما بي يا بثينة قاتلي

من الحب قالت : ثابت ويزيد

وإنْ قلتُ: ردي بعض عقلي أعش به

مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد

فلا أنا مردود بما جئت طالبا

ولا حبها فيما يبيد يبيد

من القيم التي اشتملت عليها الأبيات الوفاء بالعهد . ورعاية المواثيق . ونحن نعلم أن هذا الأمر من مبادئ الإسلام السامية التي حث عليها القرآن الكريم، والسنة النبوية . يقول الله عز وجل آمراً بالوفاء بالعهد :

﴿ ... وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

ويقول الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ... ﴾ (٢)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (٣)

١- سورة الإسراء من الآية ٣٤
٢- سورة المائدة من الآية ١
٣- سورة النحل الآية ٩١

ويقول عز وجل :

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝ ﴾ (١)

ويقول الرسول ﷺ :

" آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان "

ومن هذا المنطلق ومن تلك القواعد الثابتة انطلق جميل وراح يذكر بثينة بذلك العهد المبرم بينه وبينها والله شهيد عليه ، ليكون أدعى للوفاء به وعدم نقضه بقول جميل

وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي

من الله ميثاق له وعهود

وقد كان حبكم طريفاً وتالداً

وما الحب إلا طارف وتالد

وهكذا اشتملت القصيدة على مجموعة من القيم الخلقية والدينية ، التي نمت عن ثقافة الشاعر الدينية التي تربى عليها ، فهذبت من سلوكه ورققت حواشيه وجوانحه ، وكانت تمثل سياجاً يحميه من الانفلات نحو العرل المكشوف المبتذل

ثانياً : من حيث الشكل :

الشعر بالنسبة له رسالته الفنية الخطيرة في تجارب الحياة والمجتمع ، بل فاعليته المؤثرة في البناء والهدم ، والسمو والانحطاط ، وذلك من خلال الأثر الفني والشعوري الذي يكون مادة أساسية في التأثير على المتلقي ، والتعامل المباشر مع مشاعره وأحاسيسه ، وبالتالي تطويعها ، وتشكيل مزاجها سلباً أو إيجاباً ، ولم يكن

١- سورة الرعد الآية ٢٠ ٢١

للشعر - عامة - من فضل في هذا التأثير الا عبر عناصر فنية يتشكل منها الاسلوب. نعدو مقوما أصيلا في تشكيل القالب الفني للادب الشعبي، ومقوما فنيا أصيلا - كذلك - في تحقيق القوة التأثيرية للتجربة فيما تحمل من مضامين وفيما تعالج من موضوعات

وتتعدد هذه العناصر الفنية التي يتشكل فيها القالب الأسلوبي من لغة وعاطفة وخيال وموسيقى، تغدو كلها لبنات أساسية في تجسيد الأفكار، والأطوار الشعورية، وما تكنه النفس من مكنونات ودفائن

وحينئذ تكون شاهدة عيان على شاعرية الشاعر؛ إذا تحتاج هذه المواد - في تحقيق أثرها الفني في التنسيق بينها، واستعلال إيحاءاتها للتمكين من انشاء قالب أسلوبي فني، يتضمن السمات الفنية الحية والرصانة والقوة والمتانة

ولم يكن ثمة شيء قد مكن الشعراء من توظيف أحاسيسهم ومشاعرهم في نقل الحوانب الإنسانية وغيرها سوى مهارتهم في التعبير الفني المحكم بهذه العناصر الفنية للأسلوب

والقصيدة التي بين أيدينا اشتملت على كثير من القيم الفنية، ونحن بصدد تحديدها

١- الصورة والأخيلة :

والصورة من الأمور التي يرتكز عليها الشعر، فهي المعرض الذي يعرض فيه الشاعر أفكاره وخواطره، كما أنها تتلون بعاطفته وانفعالاته، وتتكون من الكلمات والعبارات في نسق يخطط له الأديب في اختيار بقعة البداية وخطة

النهاية . وفي اختيار اللغة المناسبة والدور القادر على الإيحاء بالعاطفة المرتقبة التي يدل تكرار الصوت فيها أو تنوعه على حالة نفسية مقصودة [1] .

إذن فالصورة عبارة عن شعر يحتاج إلى مصور بارع ليجمع شتاتها، ويتسق ألوانها حتى تكون معبرة ومنبعثة عن خواطره وأفكاره وتجربته . ولا يأتي هذا إلا من خلال تناول الموضوع ، ليستوفيه من طريق الكلمات والعبارات . التي هي من أهم مكونات الصورة لما تؤديه من دور بارز في الإيحاء عن نفسية الشاعر . لكنه المسئول عن تنسيقها وتنظيمها . وضبط إيقاعاتها مع الحس الشعوري الذي يريد أن يرسمه . وألا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية

وليس لا ينبغي للشاعر أن يقف على المعنى القاموسي للكلمة وحسب بل يجرجها منه إلى معنى أرحب وأوسع وأجمل . ووضعه في مكانه المناسب من العبارة لتكون الكلمة رهينة الأصوات الموسيقية التي تتآلف في تركيبها ولتعطي صورة واضحة متناسقة الألوان والظلال ولكي تكون الصورة باهرة رائعة . ينبغي أن يصاحبها شيء من الخيال ليجمع بين أجزائها وينظمها . ويوفق بين ما يكون فيها من متناقضات عن طريق رؤية الوحدة الباطنة المختفية وراء هذه المتناقضات . فإذا المتفرق في الطبيعة يصبح متكاملا موحدا لتكون ذات الشاعر إن قوتها تتمثل في الإيحاء بالأفكار عن طريق الصور المدعمة بشيء من الخيال بعيدا عن الأفكار المجردة أو المباشرة

وعلى هذا الأساس فالصورة عبارة عن قالب له أجزاء يصب فيه الشاعر أفكاره وخواطره وألوانها بألوانها المناسبة . وينظم أبعادها . وسيلته في ذلك الألفاظ والعبارات وشيء من الخيال . أو هي أداة الشاعر الفنية يعبر عن تجربته .

١- انظر مقدمة في النقد الأدبي . محمد حسن عبد الله ص ٢٤٠

ويرسم مشاهد من حياته وواقعه ، فوامه الكلمات وما يحدثه بينها من علاقات يبتكر بها دلالات جديدة غير مباشرة يبني بها عالما متغيراً جديداً يجمع فيها بين عناصر متباعدة ، في إطار من الانسجام والوحدة ويصور المعنى تصويرا جديدا ، ويخاطب المشاعر . ويدع للخيال حرية التخيل حول الصورة المشكلة

والصورة الرائعة هي التي يصل الشاعر من خلالها إلى قلوب الآخرين ، ويؤثر فيهم ، والتجربة الشعورية للحب العذري من أقوى التجارب الأدبية ، وأبلغها عاية في الصدق الفني الذي يقوم على التلائم بين المعاناة في مشاعر الحب الهادر ، ووجدانه القوي ، وبين عناصرها من العاطفة والمشاعر الروحية والخواطر وأدواتها في التصوير من الألفاظ والأساليب والصور المستمدة من الحقيقة والخيال ووافد الموسيقى المختلفة . لذا فقد رأينا الشاعر (جميل) يحرص على رقة مشاعره ومعاناته في الحب ، بدخوله في العرض الأصيل للقصيدة وهو الحب العذري دون ان يقدم لها كما اعتاد معاصروه من الشعراء ، وقد عمد جميل إلى هذا النهج الفني نتيجة لاحتشاد مشاعره وشاعريته دوافل من رفرات الوجد المكونة للهيب الشوق إلى محبوبته ، ومن ثم فهو ليس في حاجة إلى مقدمة طويلة يتوسل بها إلى ذكر صاحبته ، والهاب مشاعره وحشد شاعريته نحوها كما أعتاد كثير من الشعراء قبله بل هو في حاجة ملحة إلى التنفيس عن عواصفه وجراحه المكلومة ، عله يجد من خلاله متنفساً يريح به قلبه ، ومن ثم قصد إلى ذكرها والحديث عنها في عجالة مباشرة .

ومن هذا المنطلق فإن هذا النهج الفني سرعة الولوج إلى موضوع القصيدة ومباشرة الحديث عنه يكاد يمثل عاملاً وخاصة مشتركة عند شعر الحب العذري

ولعل أبرز دليل على صحة هذا الرأي تلك البداية الرائعة التي بدأ بها جميل هذه القصيدة حيث يقول

ألا ليت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بثين يعود

إذ قصد إلى محاطبة صاحبته في تلقائية ولهفة وتطلع إلى أيام الصفاء والنقاء والطهر والعفاف وبرداد تلقائية الشاعر وبراعته في استهلاله لعرضه دون واسطة أو مقدمة . من محاطبته لمحبوبته بقوله (يا بثن) . فقد حدد حاجته وسؤاله ورجاءه . وهذه صورة تبعث على الإعجاب بشاعرية جميل. وحسن استهلاله لهذه القصيدة وتمكنه من أدوات فنه

ومن الصور التي أسهمت في إظهار المعنى . والتعبير عن مكنون الشاعر . والإفصاح عن مراده قوله في البيت الثالث :

وما أنس من الأشياء لا أنس قولها

وقد قربت نضوي أمصر تريد

فهو يوحي بأن بثينة قد أخذت منه كل شيء وسلبت عقله ولبه حتى عاد لم يتذكر شيئاً إلا شيئاً واحداً هو قولها " امصر تريد " وفي هذا إيحاء باستمرار الحب بينهما . لكنها تستفهم وتستذكر الفراق والاغتراب الذي يوجع الحب ويزيد حرارة الشوق والحرمان

كما أن في البيت صورة أخرى قوله " قربت نضوي " حيث يصور ذلك الحياء الذي يملأ قلب بثينة ونفسها وهو من سمات الحب العذري القائم على الطهر والعفاف . فهي لا تصرح بما يدور في نفسها من خوف ولهفة على فراق محبوبها . لكنها اقتربت منه كي تهمس في أذنه . فالصورتان بالغتان من

الحقيقة . فهي - في نظره - لا تسأل بالإستفهام عن سفره إلى مصر . فهو أمر مقرر وحقيقة واقعة . وإنما تصور لوعة الفراق وآلام الغربة ومرارة الابتعاد

ومثله صورة في البيت الرابع . تبرز كذلك - حياء محبوبته وعفتها وتحوطها من الوشاة والحساد لذلك فهي لا تستطيع توديع محبوبها . وحتى لا يظن بها محبوبها التقصير . بل هي في حالة من الخوف والحياء معاً خوف من عيون الحساد والوشاة . وحياء من أن يراها أحد لذا فإنها تقسم له بأنها غير مقصرة وأنها تفديه بنفسها وروحها . بل بأسنانها وأحداقها . دليلاً على إخلاصها ومحبتها.

وأما قوله " فيما يبيد يبيد " فهو صرخة الشاعر الذي لا يملك الفرار من لوعته العاتية لأن المقادير برهتها عن الفناء . كما نلمح هذا التجانس في الإيقاع من حيث اللفظ والتناسق في التقابل بين المعنيين وهو إيقاع موسيقي أيضاً . فالمعنى الأول يغاير الثاني رغم هذا التجانس اللفظي . وهذا يعطي نغماً موسيقا يدل على موهبة الشاعر في التصوير . وإبراز معالم الحب العذري وسمات العزل العفيف .

وفي الأبيات الخامس عشر وحتى الثامن عشر . صور أدبية متراكبة ومتنوعة فالاستفهام في " ألا ليت شعري " يعطي صورا متلاحقة مثل صور العرض . للأسلوب الإنشائي وبين الوصل والمنع إلى حد " التعذر " أو اليأس القاتل

وكذلك الاستفهام في قوله " وهل أهبطن أرضا " يحور الرجاء والتحسر والدعاء والصراع العنيف والخوف من عوائق الطبيعة كالسهول والوديان والجبال. والعواصف والرياح والأنواء والأمطار . فمظاهر الطبيعة تشاركه الثورة والصراع

والعنف وهي من سمات المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين الطبيعة ومظاهر الحياة والكون

والاستفهام الثالث "وهل ألقى سعدي" يصور النفي والانكار والخوف من الوشاة ثم الرمز بسعدي عن حبه حفاظا عليها او حمايةً لها من أهلها، أو مراعاة للتقاليد والعادات عند العرب، أو سيرا على نهج الشعراء. وفي التكنية عن اسم محبوبته الحقيقي بسعدي او ليلى وغيرها من الصور التي تراوح حول هذا الرمز العربي

ثم ينتهي القصيدة إلى قمة التصوير الأدبي للمبالغة في قمة الحب العذري الطاهر، لتكون كالحكم القضائي والنتيجة الحتمية لهذه التجربة الشعورية في الحب العفيف الصادق. ودلك في تصوير مكابدة الحب، والمعاناة فيه،والجهاد في الحفاظ عليه، وبقيته ومقاومة الصراعات والثارات من حوله،حتى يتحقق له إحدى الحسنيين : اما الزواج والتمتع بالحبيب العذب واما أن ينال الشهادة في سبيل الحب العفيف. يقول جميل بثينة

يقولون : جاهد يا جميل بغزوة

وأي جهاد غيرهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشة

وكل قتيل بينهن شهيد

٣- الالفاظ والتراكيب :

الألفاظ والكلمات تلعب دورا بارزا في الشعر إذ إنها تساعد على بعث صور ايحائية. وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معانيها التصويرية الفطرية في اللغة

ومن ثم عندما يتخذ الشاعر لنفسه كما صحما من الكلماتالذي يخدم أو يعرض بها موضوعا ما يجب أن تكون هذه الكلمات ملائمة ودالة على المعنى الذي يسوقه . إذ يساعدنا هذا على معرفة الشاعر ونفسيته . وذلك من خلال دوعية الكلمات التي يكثر دورانها في شعره إذ إن ما يعبر الكاتب عنه حقا هو طبعه وشخصيته العميقة وما يفصله وما ينفر منه . ومعلهزه . ومعط حنانه ونفوده واتزانه وحيويته وفتوره . وهذا ما يعبر عنه إن كان يقدم بياناً حقيقيا باهتماماته الخاصة

ويتجاور مع هذا العنصر عنصر آخر له أهميته . وهو العاطفة . ومن خلالها يندفع إلى الشاعر الكشف عما يعتمل في نفوسنا . أو حنايا الكون استجابة لهذه العاطفة وهي لغة هي صور . ولذا فإن اختيار الشاعر لكلمات معينة يرجع لأسباب نفسية . أو لاتجاه شعري . إذ أن لغة الإنسان جزء من تركيبته النفسية . وان انتقاءه للكلمات والمفردات يعتمد على طبيعة ما يريد الإفصاح عنه من داخل تكوينه الذاتي . ومما ترسب في أعماقه

ومن هذا المنطلق فقد اتسمت القصيدة بالسهولة والوضوح في ألفاظها ومعانيها في إيحاء تام وجلاء بين . وهي سمة فنية تكشف عن قدرة الشاعر وتمكنه من أدوات فنه . وتنم عن ثقافته الفنية ودرايته بألفاظ اللغة ومعانيها . لذا نراه يعمد إلى المعاني المركبة فتسلس له وتدوب رقة وسهولة فإذا هي محلوة واضحة يدركها المتلقي دون عناء أو تعب . ويرجع ذلك - كما أشرنا من قبل- إلى قوة العاطفة ودوعيتها . والشاعر هنا شديد الشعف بمحبوبته فهمي تفكيره وحواسه ومشاعره وحبه الذي ينصرف إليه بفكره وفنه ويسخرهما لخدمة هذا الغرض وتلك العاطفة الجياشة ؛ لذا نراه لا يجهد نفسه وراء المعاني البعيدة أو الخيال

الجامح . ولا يتكلف الألفاظ العربية المتقعرة . وإنما ينساق بشاعريته وعاطفته وفيض حبه إلى المعاني الرقيقة والتراكيب السهلة التي توحي بمكنون نفسه وتنم عن مراده وتفصح عن تجربته دون عناء او مشقة

ومن ثم فالناظر إلى المعجم اللفظي للشاعر في هذه القصيدة . يرى كماً هائلاً وسيلاً منهمراً من كلمات الحب . والوصال التي تدل عنا في نفسه من حب وعشق وهيام مثل الوجد والدمع . عبرة . الحب . حبكم . الوصل - سوال - سعد - سعدي - الصفاء أهواء إلى غير ذلك من الكلمات التي توحي وتعلي دلالة على حبه وصدقه فيه

كما أن هناك كماً من الألفاظ التي توحي بمعاناته وتألمه من البعد والفراق وقلة الوصال . ومن ذلك ألا ليت . تولى . يعود . فنعي كما كنا نكون - وما أنسى . لا أنسى قولها ولا قولها · لولا العيون .فاعذرني - فدتك جدود - خليلي ما أحلى - قاتلي - ردي بعض عقلي - بعد . فلا أنا مردود . صعود . أفديه عبثي - أطلت ذاك الدهر - هل أبيتن ليلة - هل أهبطن أرضاً - هل ألقين - هل تلتقي إلى غير ذلك من الألفاظ والتراكيب التي تدل على معاناته وتأجج صبابته وحرمانه . وانتظار الوصال لم يحط به

وهكذا استطاع الشاعر أن يبرز ملامح تجربته وحبه نحو محبوبته . وكذلك معاناته وعفته وطهره في هذا الحب

كما ينبغي الإشارة إلى أن القصيدة اشتملت على بعض الألفاظ التي تنم عن ثقافاته الإسلامية . مثل · صديق . الله . حميد . ميثاق . عهود . والبيت الثالث عشر كله حيث يعلم أن بثينة لبست زوجته وإنما هي في عصمة رجل آخر

وهذا حلق اسلامي ومن الألفاظ الدالة عن ثقافته الإسلامية أيضا قرين - رشيد - بموت - يحيا - جاهد عروه - جهاد وحديث - قتيل - شهيد .

ولم ينس الشاعر أن يتاح من الطبيعة ما يعبر به عن حر، من تجربته مثل أرض . رياح حزين . الثنايا

وهكذا استطاع الشاعر أن يعبر عن تجربته في الحب العذري من خلال القيم الموضوعية والعذبة التي وظفها في هذه القصيدة لتكون الركيزة التي يركز عليها في إخراج هذه التجربة من أعماق قلبه ووجدانه .